



مَا الْإِنْسَانُ

تأليف: مارل توين
تقديم: أنور عُمَر

إهداء 2005

**الأستاذ الدكتور / احمد حمدي محمود
القاهرة**

بجته التأليف والترجمة والنشر

سلسلة الفكر الحديث

ما الإنسان

تأليف: مارل و توين
تريب: أنور عليم

فهرس

صفحة	
١	مقدمة المترجم
	الفصل الأول
٣	<div style="display: flex; align-items: center;"> <div style="flex: 1;"> ١ - الآلة البشرية . ب - القيمة الشخصية </div> <div style="font-size: 3em; margin: 0 10px;">}</div> <div style="flex: 1;"> </div> </div>
	الفصل الثاني
١٦	<div style="display: flex; align-items: center;"> <div style="flex: 1;"> الدافع الوحيد للإنسان ضمان إرضاء الذات </div> <div style="font-size: 3em; margin: 0 10px;">}</div> <div style="flex: 1;"> </div> </div>
٢٨	قصة صغيرة
	الفصل الثالث
٣٥	أمثلة في الموضوع
٤٥	أمثلة أخرى
	الفصل الرابع
٤٩	التدريب
٦٢	نصيحة
٧٠	قصة
	الفصل الخامس
٧٢	الآلة من جديد
٧٤	بعد بضعة أيام

صفحة	
٨٢	عملية التفكير
	الفصل السادس
٨٧	الفريزة والتفكير
١٠٤	الإرادة الحرة
١٠٨	مقياس القيم
١١٠	مشكلة
١١٤	النزعة ذات السيادة
١١٧	ممانعة

مقدمة المؤلف

بدأت الدراسة من أجل كتابة هذه الأوراق منذ خمس وعشرين أو سبع وعشرين سنة . وكتبتها منذ سبع سنين ، وقد راجعتها منذ ذلك الحين مرة أو مرتين كل عام ، وفي كل مرة كنت أشعر نحوها بالرضى ، وهأنذا أرجع إليها مرة أخيرة ولا أزال راضياً عما تعبر عنه من حقيقة .

وكل فكرة تشملها هذه الأوراق سبق أن فكر فيها (بل وقبلها كحقيقة لا جدال فيها) ملايين من البشر — ولكنهم كانوا دائماً يعمدون إلى إخفائها مع الاحتفاظ بها كمقائد شخصية ، ولماذا لم يصرحوا بها ؟ لأنهم كانوا يخافون نقد الناس حولهم ولا يقدرّون على احتمال ذلك النقد ، ولماذا لم أنشرها أنا من جانبي ؟ لقد منعني نفس السبب على ما أظن . لا يمكنني أن أجد سبباً آخر .

مارك توين

فبراير سنة ١٩٠٥

الفصل الاول

(١) الآلة البشرية (ب) القيمة الشخصية

”الشاب والشيخ يتحدان من مدة . الشيخ يؤكد أن الإنسان لا يعدو أن يكون آلة ، الشاب يعارض ويسأله أن يتكلم بشيء من التفصيل ويبين الأسباب التي بنى عليها موقفه“ .

الشيخ : ما هي المواد التي تصنع منها آلة بخارية ؟
الشاب : الحديد والفولاذ والجناس والمدن وهكذا .

الشيخ : وأين توجد كل هذه المواد ؟

الشاب : في الصخور .

الشيخ : في حالة نقاء ؟

الشاب : لا بل مختلطة بالصخور .

الشيخ : هل أودعت المعادن فجأة داخل الصخور ؟

الشاب : كلا بل هي عملية بطيئة متناهية في البطء خلال أجيال لا تحصى .

الشيخ : وهل كان بإمكانك أن تصنع الآلة من الصخور نفسها ؟

الشاب : نعم . ولكنها في هذه الحالة تكون آلة رديئة عديمة القيمة . . .

أو . . . لا . . . بالفعل لا شيء .

الشيخ : وماذا يجب أن تفعل لكي تخرج آلة قوية صالحة للعمل ؟

الشاب : نحفر مناجم في التلال ونقطع منها الصخر المشتعل على عناصر

الحديد . ثم نسحقه فنصهره ونحمله في النهاية إلى سبائك حديدية . ثم نجرى عملية سمر على بعض منه فيستحيل فولاداً . ثم نستخرج ونستخلص ونخلط المعادن المتعددة التي يصنع منها النحاس الأصفر . . .

الشيخ : ثم ؟

الشاب : من النتيجة النهائية نبنى الآلة الصالحة .

الشيخ : هل تنتظر الشيء الكثير من هذه الآلة ؟

الشاب : نعم . . . بدون شك .

الشيخ : أظنها تقدر على إدارة المجلة والمثقاب والمسحاة وغيرها من الآلات الدقيقة التي تصادفها في مصنع كبير ؟

الشاب : نعم . يمكنها كل هذا .

الشيخ : أى عمل كان يمكن أن تؤديه الآلة الصخرية ؟

الشاب : لعلها تدبر « ما كينة خياطة » — لا أعتقد أنها قادرة على أكثر من ذلك .

الشيخ : هل يعجب الناس بالآلة الأخرى ويعدحونها في كثير من التحمس ؟

الشاب : نعم . . .

الشيخ : وهل يعجبون بآلة صخرية ؟

الشاب : كلا .

الشيخ : هل قيمة الآلة المعدنية تفوق كثيراً قيمة الآلة الحجرية ؟

الشاب : بالطبع .

الشيخ : أهي قيمة شخصية ؟

الشاب : قيمة شخصية ! ما ذا تعنى ؟

الشيخ : هل لها الحق في أن تفخر بما تقوم به باعتباره مقدرة شخصية ؟

الشاب : الآلة . . لا بالطبع .

الشيخ : ولم لا ؟

الشاب : لأن عملها ليس شخصياً ، بل هو نتيجة لقانون بنائها . ليس من دواعي فخرها أن تقوم بعمل صنعت من أجل القيام به لا تملك أن تمتنع عن القيام به .

الشيخ : وليس من دواعي الانتفاص من القيمة « الشخصية » للآلة الحجرية أنها تؤدي عملاً ضئيلاً ؟

الشاب : بالطبع لا . فهي لا تعمل أكثر ولا أقل مما قرضه عليها القاعدة التي صنعت بمقتضاها ؛ ليس هناك شيء شخصي في الموضوع ؛ وليس للآلة أن تختار ، ولكن هل تقصد من هذه المحادثة أن تصل إلى افتراض أن الإنسان والآلة متشابهان ؛ وأن ليست هناك قيمة شخصية لما يقوم به بكل منهما ؟

الشيخ : نعم — ولكن أرجو المذرة ، فأنا لا أقصد الإساءة ، ما الفرق الأول بين الآلة الحجرية والآلة الحديدية ؟ هل نسميه التدريب والتربية ؟ هل نسمى الآلة الحجرية إنساناً متوحشاً والآلة الحديدية إنساناً متمديناً ؟ فالصخور الأصلية كانت تشتمل على المادة التي صنعت منها الآلة الحديدية ولكن بجانب هذه المادة اشتملت على الكثير من الكبريت والحجر ومواد أخرى غريبة موروثه من العصور الجيولوجية — ولنسم هذه الأخيرة شوائب فاسدة ، شوائب لم يكن لأي عنصر من عناصر الصخر نفسها القدرة ولا الرغبة في استبعادها ، هل لك أن تدون هذه الجملة الأخيرة ؟ الشاب : نعم كتبتها « شوائب فاسدة لم يكن لأي عنصر من عناصر الصخر نفسها القدرة ولا الرغبة في استبعادها » استمر .

الشيخ : شوائب فاسدة يجب استبعادها بفعل مؤثر خارجي وإلا كان استبعادها مستحيلا . دون هذه الجملة أيضاً .

الشاب : حسنا . . . « يجب استبعادها بفعل مؤثر خارجي وإلا كان استبعادها مستحيلا » استمر .

الشيخ : الطبيعة الفاسدة هي التي تمنع الحديد من التخلص من الصخور التي تضمفه ، أو بعبارة أوضح . . . « عدم المبالاة » من جانب الحديد سواء استبعد الصخر أم لم يستبعد . ثم يأتي المؤثر الخارجي ويطلق الصخر فيحمله مسحوقاً ، فيتحرر الحديد الخام ، ولكنه في هذه الحالة لم يزل مشوباً بمواد غريبة ، فلا بد من مؤثر خارجي يصهر المسحوق ليخلص المعدن من شوائبه فينفذو إذن متحرراً من عبثها ، ولكنه ما زال غير مبال بأي تقدم جديد . فيأتي مؤثر خارجي آخر ويدفع به إلى أنون « بسمر » وما زال به يهذب حتى يحمله صلباً من أجود الأنواع . لقد تم تهذيبه الآن . . . لقد وصل إلى أبعد مدى يمكن أن يصل إليه ، فليس هناك احتمال لوجود أية عملية جديدة تهذيبه فيصبح ذهباً . هل لك أن تسجل هذه الفكرة أيضاً .

الشاب : نعم — « كل شيء له حدود » . . . لا يمكن تهذيب الحديد فيصبح ذهباً .

الشيخ : هناك رجال من ذهب ، ورجال من صفيح ، ورجال من نحاس ، وآخرون من رصاص وغيرهم من صلب وهكذا — وكل منهم له حدوده الطبيعية ، له صفاته الموروثة ، له تدريبه وله بيئته ، ويمكنك أن تبني الآلات من كل معدن من هذه المعادن ، وكل آلة منها سوف تعمل ؛ ولكن عليك ألا تطالب الضعيف منها أن يقوم بعمل مساو لعمل

القوى ، وفي كل حالة لكي تحصل على أحسن النتائج عليك أن تخلص المعدن من عناصر الفساد التي تشوب نقاءه — بالسحق والصهر والتنقية وهكذا . . .

الشاب : هل وصلت إلى الإنسان الآن ؟

الشيخ : الإنسان الآلى — الآلة البشرية ، آلة مجردة عن فكرة الشخصية ، فأيا كان حال إنسان فهذا يرجع قبل كل شيء إلى «معدنه» وإلى المؤثرات التي تؤثر في هذا المعدن من بقايا وراثية وبيئة وروابط ، ليس هناك غير المؤثرات الخارجية وحدها تدفعه وتوجهه وتسيطر عليه ، هو لا ينتج شيئاً جديداً بالرة ، لا يبتكر ولو فكرة .

الشاب : مهلا ، مهلا ، من أين إذن جاءتني الفكرة بأن ما تقول هراء ؟

الشيخ : هذه فكرة طبيعية جداً — في الواقع فكرة لا يمكنك تلافيها . ولكنك لم تخلق العناصر التي تكونت منها فكرك ، بل هي أشتات أفكار وإحساسات جمعت بشكل لا شعورى من ألف كتاب ، وألف حديث ؛ جمعت من تيارات من الفكر والشعور سرت إلى عقلك وقلبك من عقول وقلوب أجيال من أسلافك ، فأنت لم تخلق بمجهودك « الشخصى » أدق ولا أصغر ذرة من ذرات العناصر التي تكونت منها فكرك ؛ وليس لك أن تدعى أن لك مقدرة شخصية (بالغة ما بلغت من الضآلة) تمكنك من وضع العناصر المستمارة جنباً إلى جنب ؛ فقد تم ذلك بشكل « أوتوماتيكي » . هو من فعل الآلة العقلية إذ يتفق عملها اتفاقاً تاماً مع القاعدة التي صنعت بمقتضاها . فلا يقتصر مجردك على أنك لم تصنع الآلة بنفسك ، بل أنت لا تملك أن تسيطر عليها بحال من الأحوال .

الشاب : هذا كثير ، هل تعتقد أنه لم يكن بمقدورى أن أكون غير هذه الفكرة ؟

الشيخ : من تلقاء نفسك ؟ لا . وأنت لم تكون هذه الفكرة بالذات ، وإنما آلتك العقلية عملت ذلك من أجلك ، بشكل « أوتوماتيكي » ، بشكل مباشر ، بدون تفكير وبدون الحاجة إلى تفكير .

الشاب : إذا فرضنا أنى فكرت فإذا يحدث ؟

الشيخ : تعنى إذا فرضنا أنك حاولت ؟ حاول .

الشاب : (بعد ربع ساعة) لقد فكرت .

الشيخ : تقصد أنك حاولت أن تغير رأيك . . . على سبيل التجربة ، أليس كذلك ؟

الشاب : نعم . . .

الشيخ : هل نجحت ؟

الشاب : لا ، بل ظل رأيي كما هو ومن المستحيل تغييره .

الشيخ : يؤسفنى ذلك ولكنك ترى بنفسك أن عقلك ليس إلا آلة . ليست لك سيطرة عليه وليست له سيطرة على نفسه ، وإنما هو يدار بفعل مؤثرات خارجية . هذه هى القاعدة التى صنع بمقتضاها ، وهى القاعدة فى كل آلة . . .

الشاب : ألا يمكننى بحال تغيير رأى من هذه الآراء « الأوتوماتيكية » ؟

الشيخ : لا يمكنك أن تفعل ذلك بنفسك ، ولكن المؤثرات الخارجية يمكنها .

الشاب : مؤثرات خارجية فقط ؟

الشيخ : نعم خارجية فقط .

الشاب : هذا رأى لا يمكن التمسك به — رأى مضحك .

الشيخ : ماذا يجعلك تظن ذلك ؟

الشاب : أنا لا أظن ، أنا أعلم ، لنفرض أنى عزمت على بدء مرحلة من التفكير والدراسة مع توافر النية على أن أغير رأى ، ولنفرض أنى نجحت ، فليس هذا نتيجة مؤثر خارجى بل كل المرحلة مرحلتى أنا .
هى مجهود شخصى ، لأنى خلقت المشروع .

الشيخ : لم تخلق منه شيئاً ، بل نبت من هذا الحديث بينى وبينك . وبدون هذا الحديث ما كان له أن يطرأ لك على بال ؛ فما من إنسان يخلق شيئاً ؛ كل أفكاره وكل دوافعه تأتى من الخارج .

الشاب : هذا موضوع متعب . أول إنسان كانت أفكاره من خلقه على كل حال ، لم يكن هناك من ينقل عنه .

الشيخ : أخطأت — أفكار آدم أتت له من الخارج ، أنت تخشى الموت ، أنت لم ت اخترع هذا الخوف ؛ وإنما أناك من الخارج ، من الحديث والتعليم . أما آدم فما كان يخشى الموت بالمرّة .

الشاب : لا ، بل كان يخشاه .

الشيخ : فى أول خلقه ؟

الشاب : لا .

الشيخ : متى إذن ؟

الشاب : حين هدد بالموت .

الشيخ : إذن فالخوف أتى من الخارج . إن لآدم قدره ومكانته وهما عظيمان ؛ ولكن ليس لنا أن نجعل منه إلهاً ؛ فما من أحد (غير الآلهة) أمكنه تكوين فكرة لم تأت من مصدر خارج عن نطاق نفسه . لعل عقلية آدم كانت عديمة الفائدة بالنسبة له حتى ملئت من الخارج ؛ ما كان بمقدوره

أن يخترع أتفه الأشياء بواسطتها ؛ ما كان لديه ظل من المعرفة بالفرق بين الخير والشر بل كان عليه أن يأتي بالفكرة من الخارج ؛ فلا هو ولا حواء كان يمكنهما أن يخلقا الفكرة بأن سيرهما عاريين عمل فاضح ، وإنما اتتهما المعرفة من التفاحة ... من الخارج أيضاً .

عقل الإنسان مبنى بطريقة لا يقدر معها على خلق شيء بالرة . هو لا يمكنه إلا استخدام مواد حصل عليها من الخارج . هو ليس إلا آلة وهذه الآلة تعمل بشكل « أوتوماتيكي » ، وليس بفعل الإرادة . ليس للعقل سيطرة على نفسه وليس لصاحبه سيطرة عليه . الشاب : حسناً ! لندع آدم جانباً ، ولكن الخلق عند شكسبير .

الشيخ : لا ... بل أنت تقصد النقل عند شكسبير . شكسبير لم يخلق شيئاً ، هو شاهد بدقة ورسم بمهارة ، فنجح في تصوير أناس خلقهم الله ولكن الشاعر لم يخلق أحداً بنفسه . دعنا نوفر عليه اتهامنا له بمحاولة الخلق لأن شكسبير لم يكن باستطاعته أن يخلق وإنما كان آلة — والآلات لا تخلق .

الشاب : في أي ناحية كان امتيازه إذن ؟

الشيخ : في أنه لم يكن « ماكينة خياطة » مثلك ومثلي بل كان أشبه بمنسج « جوبلين » أتت له الخيوط الملونة من الخارج ، ثم عملت المؤثرات الخارجية من مقترحات وتجارب (من قراءة ومشاهدة مسرحيات ، واشتراك في التمثيل ، واستمارة أفكار الغير وهكذا) كلها عملت على رسم تصميمات باهرة في عقله ، ثم أدارت الآلة الدقيقة فأنتج بشكل « أوتوماتيكي » ذلك النسيج الفاخر المصور الذي ما زال يثير إعجاب العالم . فلو أن شكسبير ولد وربى فوق صخرة في وسط المحيط لما وجد ذكاؤه

المفرط مواد خارجية يعمل بها ، إذ ليس باستطاعته أن يخلق مثل هذه المواد ؛ ولما وجد ذكاؤه مؤثرات خارجية ذات بال من تاليم ومناقشات ومصادر وحي ، إذ ليس بإمكانه أن يخلق مثل هذه المؤثرات وعلى ذلك فشكسبير ما كان لينتج شيئا ، ولو أنه عاش في تركيا مثلا لكان ينتظر أن ينتج شيئا ما - شيئا يصل إلى أبعد حد تتسع له المؤثرات والارتباطات والنشأة في تركيا . ولو أنه عاش في فرنسا لانتج شيئا أحسن - شيئا يصل إلى أبعد حد تتسع له المؤثرات والنشأة في فرنسا . وفي إنجلترا ارتفع إلى أسمى درجة أمكن الوصول إليها خلال المساعدة الخارجية التي تهيئها المثل العليا والمؤثرات والنشأة ، ولكن أنت وأنا لسنا إلا « ماكينات خياطة » . ننتج ما نقدر عليه ؛ ونحاول ما يتسع له جهدنا ولا نهتم مطلقا إذا عيرنا غبي بأننا لسنا من مناسج « جوبلين » . الشاب : وعلى ذلك فما نحن إلا آلات والآلات قد لا تفخر أو تزهى بما تعمله ، ولا تطالب بتقدير شخصي لقيامها بهذا العمل ، ولا تبحث عن المدح والعتاف . لا ، هذه نظرية معيبة . الشيخ : هي ليست نظرية بل مجرد حقيقة .

الشاب : على ذلك تظن أن ليس للشجاع قيمة أعظم من قيمة الجبان ؟ الشيخ : أنقص « قيمة شخصية » كلا ، كلا ، الرجل الشجاع لا يخلق شجاعته ، وليس له أن يتمتع بتقدير شخصي لمجرد « امتلاكه » لشجاعته وهو يولد مალكا لها . فعلى فرض أن طفلا ولد مالكا لثروة تبلغ ألف مليون دولار ، فأين القيمة الشخصية في ذلك ؟ وعلى فرد أن طفلا ولد معدما فأين النقص الشخصي في ذلك ؟ ومع هذا فأولهما يصير موصفا للتدليل والإعجاب بل والعبادة من جانب المتطفلين ، بينما يهمل الثاني ويحتقر ، فأى حكمة تراها في هذا ؟

الشاب : قد يحدث أحياناً أن يتولى جبان مكافحة جنبه فينجح فيغدو شجاعاً ، فهل ترى لذلك معنى ؟

الشيخ : مثل هذا العمل يبين تغلب أثر « التدريب في اتجاه سليم » على « التدريب في اتجاه خاطيء » . فالتدريب والتربية والمؤثر الخارجى إذا اتجهت في اتجاهات طيبة تنتج آثاراً قد نعجز عن تقدير مدى قيمتها . أقصد بذلك تدريب الإنسان على السمو بمثله العليا حتى يصبح رضاء عن نفسه مرتبطاً بهذه الثل .

الشاب : وهل تنكر القيمة الشخصية للجبان بعد أن قرر مكافحة جنبه فحاول ونجح ؟

الشيخ : ليس هناك شيء من هذا لقد عدا في نظر العالم إنساناً أصلياً مما كان من قبل . ولكنه لم يحقق هذا النجاح المنسوب إليه ، ليست قيمة العمل راجعة إليه .

الشاب : فإلى من ترجع إذن ؟

الشيخ : إلى تكوينه وإلى المؤثرات التى أتت من الخارج فشكلت هذا التكوين .

الشاب : تكوينه ؟

الشيخ : نعم . فهو أولاً لم يكن جباناً بشكل تام أو ميثوساً منه وإلا فما كانت المؤثرات لتجد المادة الصالحة للتشكيل ؛ فله ما كان يخشى أن يواجه بقرة برغم أنه قد يخاف ثوراً ؛ وله ما كان يخاف امرأة بقدر بقدر ما يخاف رجلاً ؛ أى أنه كان هناك أساس ييسر له البناء ؛ كانت هناك بذرة . فإن انعدمت البذرة انعدم النبات . فهل صنع هذه البذرة بنفسه أو أنها ولدت معه ؟ ليس مجرد وجود البذرة من دواعى التقدير لشخصه .

الشاب : ولكن على كل حال كانت فكرة إنماء هذه البذرة والتصميم على هذا الإنماء — كل ذلك كان جديراً بالتقدير وهو صاحب الفضل فيه .

الشيخ : هو لم يفعل شيئاً من هذا ففكرة الإنماء هذه أنت من الخارج ، أنت من حيث تأتي كل المؤثرات — سواء أكانت طيبة أم رديئة ، فلو أن هذا الجبان عاش طيلة حياته في مجتمع من الجبناء ، لو أنه لم يقرأ عن أعمال البطولة ولم يسمع من يتحدثون بها ، لو أنه لم يسمع أحداً يمدح الأبطال ويفبطهم على ما قاموا به لانعدمت لديه فكرة الشجاعة بقدر انعدام فكرة الحياء عند آدم ، ولما بدا له بالمرة أن يصمم على أن يصبح شجاعاً . لم يكن باستطاعته أن يخلق الفكرة — بل كان لا بد لها من أن تأتيه من الخارج ، وعلى ذلك فحين سمع مدح الشجاعة والسخرية من الجبن أيقظه ما سمع ، شعر بالتحجل من نفسه ، بل لعل حيييته شمتحت بأفئتها وقالت « يقال لي إنك جبان ! » لم يكن هو الذى قلب الصحيفة الجديدة ، بل فعلت هى ذلك من أجله ، ليس له أن يختال معتداً بقدره فهو فى ذلك إنما يمتد بما ليس له .

الشاب : ولكنه على كل حال تعهد النبات بعد أن روت هى البذرة .

الشيخ : لا بل تعهده المؤثرات الخارجية : فعند صدور الأمر سار إلى الميدان (وهو يرتجف) مع جنود آخرين ، وفى وضوح النهار لم يكن وحده ولم يكن فى الظلام ، كان المؤثر الخارجى هنا هو « القدوة » . استمد شجاعته من شجاعة زملائه ، كان خائفاً ، ولعله فكر فى الفرار ، ولكنه لم يجرؤ . . . فقد خشي أن يفر بينما كل هؤلاء الجنود يشهدون فراره ، ألا ترى مى أنه قد تقدم نوعاً ما ؟ لقد سما الخوف الأخلاق فوق الخوف الجسمى ، سما الخوف من العار فوق الخوف من الخطر ، وفى نهاية

المهجوم يكون قد تعلم بالتجربة أن ليس كل من يدخل المعركة يصاب - وهذا مؤثر أخلاقى آخر سوف ينفعه فيما بعد - ويكون قد عرف حلاوة المدح « لشجاعته » وحلاوة الهتاف الذى تخنقه العبرات حين تمر الفرقة التى أنهكتها الحرب أمام جماهير تحمل لها أسى معانى الإجلال : بين رايات تنشر ، وطبول تدق ، بعد هذا كله سوف يصبح له من الشجاعة مثل ما لأقدم محارب فى الجيش ، ومع ذلك فلا يمكن أن تدعى أن عمله يشتمل على أدنى ظل « للقيمة الشخصية » . لقد أتى كله من الخارج ، وإن صليب فيكتوريا يخلق من الأبطال أكثر مما

الشاب : ولكن ما معنى أن يصير شجاعاً إذا لم تنله شجاعته تقدير الغير ؟
الشيخ : سوف يتولى سؤالك الإجابة عن نفسه ، فهو يفتح المجال للحديث عن عنصر دقيق وهام يدخل فى تكوين الإنسان - عنصر لم نشر إليه بعد الشاب : وأى عنصر هذا ؟

الشيخ : هو الدافع الذى يحمل شخصاً على أن يقوم بما يقوم به من أعمال ؛ هو الدافع الوحيد الذى يحرك أى فرد ليعمل أى شئ .

الشاب : الوحيد ! أليست هناك دوافع أخرى ؟

الشيخ : لا بل هو كل شئ ، فليس هناك أكثر من دافع واحد .

الشاب : حسناً ، هذا اعتقاد غريب بعض الشئ ، وما هو إذن ذلك الدافع الوحيد الذى يتولى تحريك كل فرد حتى يقوم بأى عمل من أعماله ؟

الشيخ : هو « الرغبة فى أن يرضى نفسه » هو ضرورة لإرضاء الذات حتى ينال موافقتها على ما يعمل .

الشاب : لا ، لا . هذا كلام غير مقنع .

الشيخ : لماذا ؟

الشاب : لأن مثل هذا الدافع سوف يضعه دائماً في موقف الباحث عن الراحة والكسب ، بينما الإنسان غير الأناني غالباً ما يقوم بأعمال لا تعود بالنفع إلا على غيره . . . وهي في نفس الوقت توقع به ضرراً مؤكداً .
الشيخ : هذا خطأ . فأعماله لا بد أن تحقق الخير له أولاً وقبل كل شيء ، وإلا امتنع عن أدائها ، قد يعتقد أنه إنما يؤديها لصالح غيره ولكن الحقيقة غير ذلك فهو إنما يرضى نفسه أولاً - أما مصلحة الشخص الآخر فلا بد لها من أن تتخذ مكاناً ثانوياً .

الشاب : يالها من فكرة خيالية ! وما مصير التضحية بالنفس إذن ؟ أرجوك أن تجيب عن هذا السؤال .

الشيخ : ما هي التضحية بالنفس ؟

الشاب : هي أن تعمل الخير لغيرك في الوقت الذي لا يمكن أن ينتج عن هذا العمل أى ظل من المنفعة لنفسك .

الفصل الثاني

الدافع الوحيد للإنسان - ضمان إرضاء الذات

الشيخ : هل تعتقد بوجود أمثلة للتضحية بالنفس ؟

الشاب : أمثلة ؟ هناك ملايين منها .

الشيخ : هل أنت واثق بأنك لم تتسرع في الحكم عليها ؟ هل اختبرتها بدقة ؟

الشاب : لا يحتاج الأمر لاختبار ، فالأعمال نفسها تكشف عن الدافع النبيل المستتر وراءها .

الشيخ : مثال ذلك ؟

الشاب : حسناً - فأنضرب لذلك مثلاً بالحالة المذكورة في هذا الكتاب ، رجل يعيش على بعد ثلاثة أميال في داخل المدينة ، البرد في أقصى وأسوأ درجاته ، الثلج يتساقط بكثرة ، الوقت منتصف الليل ، هو يوشك أن يركب عربة حين تتقدم إليه عجوز تلبس أطماراً بالية وتمثل فيها كل معاني البؤس ، فتمد يدها النحيلة طالبة الخلاص من الجوع والموت ، لا يحمل الرجل في جيبه أكثر من ربع دولار ولكنه لا يتردد في أن يعطيها إياه ويواصل السير إلى منزله خلال الماصفة . والآن ، أليس هذا نبيلاً ؟ أليس هذا جليلاً ؟ إن نقاء هذا العمل وجماله لا تشوبهما أقل شائبة من المصلحة الشخصية .

الشيخ : ما الذي يجعلك تعتقد ذلك ؟

الشاب : ماذا إذن يمكنني أن أعتقد غير ذلك ؟ هل تتصور أن هناك طريقة أخرى لتفسير هذا العمل ؟

الشيخ : هل يمكنك أن تضع نفسك في مكان ذلك الرجل وتخبرني بكل ما أحس به وفكر فيه ؟

الشاب : بمنتهى البساطة ، إن رؤية ذلك الوجه المعجوز يغمره الشقاء أثار ألماً حاداً حز في قلبه الكريم . فلم يستطع احتمال ذلك الألم ، كان بإمكانه أن يحتمل السير ثلاثة أميال في العاصفة ، ولكنه ما كان ليحتمل عذاب ضميره لو أنه أدار ظهره وترك المعجوز التعسة لهلك ؛ ما كان ليستطيع النوم لمجرد التفكير في قسموته .

الشيخ : ماذا كانت حالته النفسية في طريقه لمنزله ؟
الشاب : كانت حالة فرح لا يعرفها إلا القادر على التضحية بنفسه ، كان قلبه يعني ، لم يعد يحس بالعاصفة .

الشيخ : هل نام جيداً ؟
الشاب : لا يمكن أن نشك في ذلك .

الشيخ : هذا شيء طيب جداً . والآن فلنجمع التفاصيل لنرى كم نال مقابل ربع الدولار الذي دفعه فلنحاول أن نجد السبب الحقيقي لدفع المبلغ . فهو أولاً لم يقدر على احتمال الألم الذي سببه له ذلك الوجه المعجوز المكتئب ، وإذن فقد كان يفكر في ألمه هو . ولو أنه لم يحسن إلى المرأة المعجوز لمذبه ضميره طول الطريق ، وهنا يفكر في ألمه من جديد ، وعليه أن يشتري خلاصه من ذلك الألم ، ولو أنه لم يدفع مادفعه لتلك البائسة لما استمتع بنعمة النوم ، إذن فمليه أن يشتري شيئاً من النوم — أي أنه ما زال يفكر في نفسه . والخلاصة هي أنه

اشترى راحته من الألم الذى يحز فى قلبه ، واشترى راحته من عذاب ضمير لا يرحم ، واشترى نومه ليلا طويلا هادئا . . . وكل ذلك بمبلغ خمسة وعشرين سنتا لا غير . إن مثل هذا المثال كفيف بأن يجعل شارع « وول » ينجل من نفسه . وفى طريقه لمنزله كان قلبه سعيداً ، بل كان قلبه يفتى . . . وهذا ربح جديد فوق ما أسلفنا .

وإذن فالدافع الذى جعل الرجل يساعد المرأة المعجوز كان أولاً لإرضاء مطالب نفسه وثانياً تخفيف آلام المرأة . فهل تعتقد أن أعمال الإنسان تصدر عن دافع مركزى واحد لا يتغير ولا يمكن تغييره ، أم أنها تصدر عن مجموعة دوافع مختلفة .

الشاب : بالطبع تصدر عن مجموعة مختلفة — بعضها سام ونبيل وبعضها الآخر عكس ذلك . ماذا تعتقد ؟

الشيخ : بأن ليس هناك غير قانون واحد ؛ مصدر واحد .

الشاب : بأن أنبل الدوافع وأحقها تصدر عن نفس ذلك المصدر .

الشيخ : نعم . .

الشاب : هل تسمح بذكر نص لهذا القانون ؟

الشيخ : نعم . هذا هو القانون . حاول أن تبعه فى ذاكرتك : « من المهد

إلى اللحد لا يقوم الإنسان بأى عمل إلا ويكون الدافع إليه أولاً وقبل

كل شيء هو أن يضمن لذاته راحة البال واطمئنان النفس .

الشاب : هل معنى هذا أنه لا يقوم مطلقاً بأى عمل يقصد به راحة الآخرين

الروحية أو الجسمية ؟

الشيخ : لا — إلا على أساس هذه الشروط الواضحة : وهى أن العمل يجب

أن يضمن الراحة الفكرية له هو أولاً . فإن لم يحقق له ذلك فلن يقوم به .

الشاب : إن من المهمل لإبراز نواحي النقص في هذا القانون .

الشيخ : اضرب مثلاً .

الشاب : خذ مثلاً تلك العاطفة النبيلة ، حب الوطن فالرجل الذي يحب السلم ويخاف الألم يترك بيته المريح ، وأسرته من ورانه تبكيه ، ليخرج معرضاً نفسه للجوع والبرد والجروح والموت ، هل يفعل ذلك بحثاً عن راحة فكرية ؟

الشيخ : هل يجب السلام ويكره الألم ؟

الشاب : نعم .

الشيخ : إذن لعل هناك شيئاً يحبه أكثر مما يجب السلام - وهذا الشيء هو رضا جيرانه ورضا الناس ، ولعل هناك شيئاً يحشاه أكثر مما يخشى الألم - وهذا الشيء هو « عدم الرضا » من جانب جيرانه ومن جانب الناس فلو كان حساساً يخشى المار لذهب إلى الميدان - لا لأن روحه سوف تتمتع براحة تامة هناك ، بل لأنها سوف تتمتع براحة أكثر مما لو بقي في داره - سوف يعمل دائماً الشيء الذي يجلب له أكبر قسط من الراحة الفكرية . . . لأن هذا هو القانون الوحيد الذي تسير حياته بمقتضاه . هو يترك الأسرة تبكيه من خلفه ، يؤسفه أن يسبب لهم هذا الألم ، ولكنه لا يأسف إلى الحد الكافي لجملة يضحي براحته في سبيل راحتهم . .

الشاب : هل تعتقد حقيقة أن مجرد رأى الناس يكفي لإجبار رجل جبان ومسالماً على أن . . .

الشيخ : يذهب للحرب ؟ نعم - رأى الناس يمكنه أن يجبر بعض الأشخاص على فعل أى شيء .

الشاب : أى شئ ؟

الشيخ : نعم . أى شئ .

الشاب : أنا لا أصدق ذلك . هل يمكنه أن يجبر إنساناً ذا مبادئ سليمة على أن يرتكب خطأ .

الشيخ : نعم .

الشاب : هل يمكنه أن يجبر إنساناً رحيماً على أن يرتكب عملاً قاسياً .

الشيخ : نعم .

الشاب : اضرب مثلاً .

الشيخ : كان الكسندر هاملتون رجلاً ذا مبادئ قوية يعتبر المبارزة عملاً منكراً يتعارض مع تعاليم الدين ، ولكن نظراً لاهتمامه برأى الناس فيه فقد اشترك في مبارزة ، كان يحب أسرته حباً عميقاً ، ولكن لكي يشتري رضا الجماهير هجر أسرته غدراً وخلسة وذهب ليفقد حياته تاركاً أهله من بعده ليمانوا مرارة الأسى مدى الحياة . لم يكن لذلك كله ثمة داع إلا رغبته في أن يظل عند حسن ظن عالم محبول ؛ فبحسب مقاييس الشرف في مجتمع ذلك العصر لم يكن باستطاعته أن يستمتع بالراحة الفكرية وقد علقت به وصمة رفض القتال ، فتعاليم الدين ، وحبه لأمرته ، وطيبة قلبه ومبادئه القوية — كل هذه لم تجد نفعا حين وقفت في طريق راحة فكره ، وإن كل إنسان مستعد لأن يعمل أى شئ (مهما كان نوع هذا الشئ) ليظل محافظاً على راحة فكره ، ولا يمكن إجباره ولا إقناعه بحال ما على أن يقوم بعمل لا يتخذ من هذه الغاية هدفاً له . فعمل هاملتون كان الدافع إليه هو تلك الضرورة الفطرية لإرضاء نفسه ، وهو في ذلك يشبه كل عمل آخر قام به في

حياته ، بل ويشبه أعمال جميع الناس خلال حياة كل فرد منهم من أقصاها إلى أقصاها . فهل ترى أين يوجد لب الموضوع ؟ ما من إنسان يمكنه أن يحيا في راحة بدون « رضا نفسه عن نفسه » . فهو يحاول الاحتفاظ بأ أكبر نصيب من هذا الرضا بأي ثمن وبأية تضحية .

الشاب : لقد ذكرت منذ لحظة أن هاملتون اشترك في هذه المبارزة لكي يحصل على رضا الناس .

الشيخ : نعم . قلت ذلك . فلو أنه رفض المبارزة لحصل على رضا أهله وعلى جزء كبير من رضا نفسه ، ولكن رضا الناس كان في نظره أكبر قيمة من كل ما عداه سواء في الأرض أم في السماء ، فالحصول على رضا الناس سوف يعده بأ أكبر قسط من راحه الفكر ، أى بأ أكبر قسط من رضا عن نفسه ، وعلى ذلك ضحى بكل القيم الأخرى ليحصل على هذه الراحة وهذا الرضا .

الشاب : لقد رفضت نفوس نبيلة أن تشترك في مبارزات وواجهت احتقار الجاهل بجرأة ورجولة .

الشيخ : تصرفوا بما يتناسب مع تكوينهم ، كان لمبادئهم ولرضا عائلاتهم قيمة تفوق رضا الجاهل — أخذوا الشيء الذي يتمتع بأ أكبر قدر من الاعتبار في نظرهم ، وتركوا ما عداه ، أخذوا الشيء الذي يعطيهم أوفر قسط من الراحة والرضا الشخصي ، والإنسان يفعل ذلك دائماً ، لا يمكن لرأى الناس أن يجبر مثل هؤلاء الأشخاص على الذهاب إلى الحروب ، وحين يذهبون فإنما يكون ذلك لأسباب أخرى . . . أسباب أخرى لإرضاء النفس .

الشاب : أمى دائماً أسباب لإرضاء النفس ؟

الشيخ : نعم ، فليس هناك غير هذا النوع من الأسباب .
الشاب : حين يصحى رجل بحياته لينقذ طفلاً من بناء يحترق فإذا
تسمى ذلك ؟

الشيخ : حين يعمل هذا العمل فهو إما يتبع قانون تكوينه ، هو لا يحتمل
أن يرى الطفل في هذا الخطر (ولكن إنساناً من تكوين آخر قد
يحتمل) وعلى ذلك يحاول أن ينقذ الطفل فيفقد حياته . . . ولكنه
يكون قد نال ما أراد : « رضاه عن نفسه » .

الشاب : إذن فإذا تسمى الحب ، والكراهة ، والإحسان ، والانتقام ،
والإنسانية ، والكرم ، والتسامح .

الشيخ : كلها نتائج مختلفة للدافع واحد مسيطر وهو ضرورة الحصول على
رضا النفس ، فهي أشبه ما تكون بشخص واحد يرتدى أزياء مختلفة
ويبدو في حالات متباينة من وقت لآخر ، ولكن أياً كانت طريقة
التخفي فالشخص هو هو دائماً لا يتغير ، وبمباراة أخرى فالقوة المسيطرة
على تصرفات الإنسان - وليست له غير هذه القوة - هي ضرورة
تأمين راحته الروحية ولا تقف هذه القوة عن العمل إلا بوفاة الإنسان .
الشاب : هذا جنون ، فالحب

الشيخ : الحب هو هذا الدافع ، هو هذا القانون في أقل حالاته قابلية للموازنة
أو التلاعب ، فالحب يقف حياته كما يقف كل شيء آخر على من
يحب ، ولكن من أجل من يفعل ذلك ؟ من أجل نفسه أولاً وليس
من أجل محبوبه ، فإن كان المحبوب سميحاً فهذا ضمان لسعادة المحب -
وهذا بالضبط هو ما يبحث عنه (بشكل لا شعورى) من وراء حبه .
السعادة لنفسه أولاً .

الشاب : أنت لا تستثنى من هذا حتى عاطفة الأمومة تلك العاطفة السامية
النبيلة ؟

الشيخ : لا فهي أكثر العواطف خضوعاً لذلك القانون . فالأثم قد تمرى
لتكسو طفلها ؛ وتموت جوعاً لكي ينال غذاءه ؛ وتحمل العذاب
لتنقذه من الألم ؛ بل وتقبل على الموت لتضمن له الحياة . هي تتلذذ لذة
قصوى لقيامها بهذه التضحيات ؛ تعمل ما تمليه لتتال في النهاية هذا
الجزء — تقدير الذات ، رضا النفس ، السلام ، الراحة . فد تعمل
نفس الشيء من أجل طفلك أنت إذا أمكنها الحصول على نفس الثمن .
الشاب : يا لها من فلسفة ملمونة !

الشيخ : هي ليست فلسفة وإنما هي حقيقة .

الشاب : بالطبع يجب أن تعترف أن هناك أعمالاً ...

الشيخ : لا . فليس هناك عمل (سواء أ كان كبيراً أم صغيراً ، عظيماً أم
حقيراً) يصدر عن غير هذا الدافع الوحيد — ضرورة إراحة النفس
وإرضائها .

الشاب : ولكن أولئك الذين قاموا بأعمال البر لخدمة الإنسانية ...

الشيخ . أنا أجلهم وأقوم بنحوهم بفروض الاحترام بحكم المادة وبحكم
التدريب ؛ ولكنهم هم أنفسهم ما كانوا ليعرفوا معنى الراحة أو السعادة
أو رضا النفس إذا لم يعملوا وينفقوا من أجل البائسين . فإما تسعدهم
رؤية الآخرين سعداء وعلى ذلك يشتركون ما يبتغون ، يشتركون السعادة
ورضا النفس بالمال والجهد . ولماذا لا يفعل البخلاء نفس الشيء ؟ لأن
يتمكنهم أن يحصلوا على السعادة أضعافاً مضاعفة من مجرد الإمتناع عن
فعله ، ليس هناك سبب آخر فهم يتبعون قانون تكوينهم .

الشاب : ولكن ما رأيك في القيام بالواجب من أجل الواجب ؟
الشيخ هذا شيء لا وجود له بالمرة . فالإنسان لا يقوم بالواجب من أجل
الواجب ، ولكن لأن إهمال الواجب سوف يجعله غير مرتاح ، هو
لا يقوم إلا بواجب واحد فحسب — واجب إرضاء النفس ، جعل نفسه
مقبولا في نظر نفسه . فإذا أمكنه أن يؤدي هذا الواجب الفرد بشكل
مرضى عن طريق مساعدته لجاره فسوف يفعل ذلك ، وإن أمكنه أن
يؤديه بشكل مرضى عن طريق الاحتياط على جاره فسوف يفعل ذلك
أيضاً ، هو دائم البحث عن ذاته أولاً ، أما عن أثر أعماله في غيره فهذا
أمر ثانوى ، قد يدعى الناس أنهم يضحون بأنفسهم ولكن أقول لك
بصريح العبارة إن هذا شيء لم يحدث ولن يحدث . وغالباً ما يعتمد
إنسان ما اعتقاداً راسخاً أنه قد يضحي بنفسه لمصلحة غيره وغيره فقط ،
ولكنه مغدوع ، ففي أعماق كيانه يسيره دافع واحد يتلصص لإرضاء
حاجة في طبيعته وفي تربيته ، لأنه بهذا الإرضاء يحقق سلام النفس .
الشاب : يبدو لى أنك تقصد أن تقول بأن كل الناس (من صلح منهم ومن
فسد) يكرسون حياتهم لإرضاء ضمائرهم ؟

الشيخ : نعم . هذه تسمية طيبة . الضمير — ذلك الملك المستقل ، ذلك
الحاكم المستبد المطلق الذى يسيطر على الإنسان من الداخل . هناك
ضمائر من كل نوع : فأن ترضى ضمير السفاح بطريقة خاصة بينما
ترضى ضمير رجل البر والإحسان بطريقة أخرى ، وضمير البخيل
بطريقة ثالثة ، وضمير اللص بطريقة رابعة ، وهكذا ، وإذا أخرجنا
« عنصر التدريب » من حسابنا يفقد الضمير قيمته كدليل يوجه
الإنسان إلى أية ناحية أخلاقية بالذات .

فقد عرفت يوماً رجلاً طيباً من سكان مقاطعة كنتكي كان بنفسه الشعور بالرضا عن نفسه — أو بعبارة أدق كان ضميره يمدبه — لا شيء إلا لأنه فاته أن يقتل رجلاً ما (هذا بالرغم من أنه لم ير ذلك الرجل في حياته) . فقد سبق أن قتل ذلك الغريب صديقاً لصاحبنا في مشاجرة ، وتقاليد كنتكي تحتم عليه من أجل ذلك أن ينتقم لصديقه . ولكنه أهل واجبه — ظلّ يتحاشى القيام به ويتهرب منه ويسوفه بينما ضميره الذي لا يرحم ظل يناقشه الحساب على تصرفاته ، وأخيراً لكي يريح نفسه ، ظل يتحين الفرص حتى فاز بذلك الغريب وقتله ، فهذا مثال عظيم من أمثلة « التضحية بالنفس » . . . (وأقصد هنا المعنى الدارج المتعارف لهذا التعبير) . . . لأنه لم يشأ أن يقوم بهذا العمل ولأنه ما كان ليعمله لو أنه قدر أن يشتري رضا نفسه بثمن أقل . ولكننا مصنوعون بطريقة تجعلنا ندفع أى شيء ثمناً لهذا الإرضاء — ولو كان هذا الثمن حياة رجل آخر .

الشاب : لقد تحدثت منذ لحظة عن الضمائر الدربة ، فهل تعنى أننا لم تولد معنا ضمائر قادرة على توجيهنا لطريق الخير ؟

الشيخ : لو أن الأمر كذلك لمرف الأطفال والمتوحشون الخير من الشر بدون الحاجة إلى تعليم

الشاب : ولكن هل يمكن تدريب الضمائر ؟

الشيخ : نعم .

الشاب : بطبيعة الحال يأتي التدريب على أيدي الوالدين ، والمدرسين ورجال الدين والكتب .

الشيخ : نعم كل هؤلاء يقومون بأدوارهم ، يعملون ما يقدرون عليه .

الشاب : والباقي يقوم به

الشيخ : آلاى المؤثرات غير الملحوظة — منها ما هو طيب ، ومنها ما هو سيئ ، مؤثرات تعمل بدون توقف خلال كل لحظة من لحظات اليقظة

فى حياة الإنسان ... من المهد إلى اللحد .

الشاب : هل أحصيت كل هذه المؤثرات ؟

الشيخ : نعم عدد كبير منها .

الشاب : هل تفضل بإطلاعى على النتيجة ؟

الشيخ : نعم ، ولكن فى وقت آخر ، فقد تستغرق هذه العملية ساعة تقريباً

الشاب : هل يمكن تدريب الضمير على تجنب الشر وتفضيل الخير ؟

الشيخ : نعم .

الشاب : ولكنه فى هذه الحالة يفضل الخير بدافع « إرضاء النفس ؟ »

الشيخ : لا يمكن تدريبه على أن يعمل شيئاً بدافع آخر ، لأن مثل هذا

التدريب مستحيل .

الشاب : لا بد أن تاريخ الإنسان يحوى فى زواياه عملاً يشهد بتفسيحية

النفس تضحية حقيقية تامة .

الشيخ : أنت ما زلت صغيراً ، وما زالت الحياة أمامك طويلة ، فابحث عن

.. مثل هذا العمل .

الشاب : يبدو لى أنه حين يرى رجل إنساناً آخر يناضل الأمواج فيقفز

فى الماء مخاطراً بحياته لينقذه ...

الشيخ : انتظر ، صف لى « الرجل » الذى ذكرت ؛ صف « الإنسان

الآخر » ؛ واذكر لى هل هناك متفرجون ، أم هل هما وحدهما ؟

الشاب : وما دخل هذه الأشياء كلها فى العمل البديع الذى نحن بصده ؟

الشيخ : لها دخل كبير . هل نفترض بشكل مبدئي أن الإثنين منفردان في مكان منزل ، وأن الوقت كان منتصف الليل ؟
الشاب : لك أن تختار ذلك .

الشيخ : وهل نفترض أن « الإنسان الآخر » هو ابنة ذلك « الرجل » ؟
الشاب : لا بل أظن أن من الأوفق افتراض شخص آخر .
الشيخ : إذن فلنختر لثالنا عرييداً قذراً في حالة سكر .

الشاب : آه ، فهمت . بتغير الظروف يتغير وضع القضية . أظن أنه لو لم يوجد متفرجون يشهدون هذا العمل لما قام به صاحبه .

الشيخ : ولكن قد يوجد هنا أو هناك شخص يقوم به رغم ذلك — أناس مثل ذلك الرجل الذي فقد حياته في محاولة إنقاذ الطفل من النار ، والرجل الذي أعطى المعجوز المُعْدِمَة ربع دولار وسار إلى بيته في العاصفة ، مثل هؤلاء الناس يقومون بأعمالهم بدون الحاجة إلى متفرجين ولماذا ؟ لأنه لا يمكنهم احتمال رؤية إنسان آخر يناضل الأمواج بدون أن يقفزوا في الماء لإنقاذه ؛ فإذا لم يقفزوا سبب ذلك لهم المآ . هم ينفذون « الإنسان الآخر » على هذا الأساس ؛ ولن يعملوا نفس العمل على أساس آخر . هم يطيعون طاعة عمياء ذلك القانون الذي حاولت أنؤكدك لك أكثر من مرة . يجب أن نتذكر وتعيذ دائماً بين الأشخاص الذين يمكنهم احتمال أشياء بالذات والأشخاص الذين يمكنهم احتمالها . فهذا يلقى ضروءاً على حالات قد تبدو فيها روح « التصحية بالنفس » .

الشاب : أعوذ بالله . هذه تفسيرات تدعو للاشمئزاز .
الشيخ : نعم ولكنها الحقيقة .

الشاب : والآن يا سيدى — إليك مثال الولد الطيب الذى يعمل أشياء لا يرغب فيها لمجرد إرضاء أمه . . .

الشيخ : إن ٧٠٪ من الدافع وراء العمل هو رضا الشخصى حين ترضى أمه ؛ فإذا حولت نفس النسبة فى الاتجاه المضاد فإن الولد الطيب سوف يرفض القيام بالعمل . لا بد له من أن يتبع ذلك القانون ، يتبع ذلك القيد الحديدى الذى لا يقدر أحد على الإفلات منه .

الشاب : إذن فأليك مثال الولد الفاسد الذى . . .

الشيخ : لا داعى لأن تذكر هذا ، فهو مضيعة للوقت . ليس المهم هو ما عمله الولد الفاسد ؛ فأيا كان عمله فلا بد أن وراءه دافع البحث عن إرضاء الذات . وإن رأيت غير هذا الراى فلا بد أنك لم تعرف كل ما حدث ولا بد أنه لم يقم بذلك العمل .

الشاب : هذا موضوع يدعو لليأس ؛ فنذ لحظة قلت لى إن ضمير الإنسان لم يولد قادراً على الحكم على القيم الإخلاقية ولا على السلوك ، بل لا بد من تعليمه وتدريبه . وأنا أرى أن الضمير يمكن أن يغدو خاملاً أو وسنان ، ولكفى لا أعتقد أنه يمكن أن يخطئ ، فإذا أيقظته

قصة صغيرة

الشيخ : سوف أقص عليك قصة صغيرة .

حدث ذات مرة أن نزل كافر ضعيفاً على أرملة مسيحية ، وكان ابنها الصغير مريضاً مشرفاً على الموت . كان الكافر غالباً ما يجلس بجانب فراش المريض ويسليه بأحاديثه ، ويتميز هذه الفرصة ليرضى حاجة ملحة من حاجات نفسه ؛ وهى الرغبة عند كل فرد منا فى أن

نصلح حال غيرنا يجعلهم يمتقدون نفس معتقداتنا . نبح الكافر في محاولته ولكن الطفل حين حضرته الوفاة عاتب ضيفه في آخر لحظة من حياته فقال :

« كنت مؤمناً وكنت سعيداً بإيماني ؛ ولكنك أضمت هذا الإيمان وأضعت معه راحة بالي ؛ والآن لم يبق لي ما أعز به ، وإني لأموت شقياً ، لأن الأشياء التي حدثتني بها لا تملأ مكان العقيدة التي فقدتها » .

كما أن الأم عاتب الكافر فقالت :

« خسرت ابني ، وخسر هو نفسه إلى الأبد ، وبات قلبي يلهيه الحزن . كيف سمحت لنفسك بأن تفعل هذه القفلة القاسية ؟ نحن لم نسيء إليك بل بالعكس أحسننا . جملنا من دارنا بيتاً لك ؛ وجملنا كل ما نملك رهن تصرفك . أو هكذا يكون الجزاء ؟ »
فامتلاً قلب الكافر بالندم على ما فعل وقال :

« كان ما فعلته خطأ — وإني أرى ذلك الآن . ولكني ما أردت إلا نفعه . كنت أعتقد أنه على خطأ ، وبدا لي أن من واجبي أن أعلمه الحقيقة » فقالت الأم :

« لقد علمته خلال حياته القصيرة ما اعتقدت أنه الحق ، وكنا كلانا سعيدين بإيمانه بهذه العقيدة . ولكنه الآن مات بعد أن خسر نفسه ، وأنا غدوت شقية تمسة . فمقيدتنا جاءتنا خلال أجيال متعاقبة من الأسلاف المؤمنين . فبأى حق سمحت لنفسك أن تمكر صفو هذه العقيدة ؟ أين كان شرفك ؟ أين كان حياؤك ؟ »
الشاب : كان كافراً ويستحق الموت .

الشيخ : ففكر هو نفسه في هذا ، بل وقاله أيضاً :
الشاب : آه ! أ رأيت لقد استيقظ ضميره .

الشيخ : نعم . استيقظ « شعوره بعدم الرضا عن نفسه » . آله أن يرى
الأم تقاسى فشعر بالأسف لأنه عمل شيئاً سبب الألم له هو « مادار بخلده
أن يفكر في الأم وقت أن كان يعلم الابن ، فقد انشغل حينذاك في تحصيل
اللذة لنفسه ؛ تحصيلها عن طريق إرضاء ما اعتقد أنه صوت الواجب .
الشاب : سمعته ماشئت — فأنا أعتبر الموضوع كله حالة من حالات « يقظة
الضمير » . فالضمير بعد يقظته سوف لا يقذف بنفسه في مثل هذه
المشكلة مرة أخرى ، وإن علاجا مثل هذا يترك أثراً دائماً .

الشيخ : أرجو المندرة — فأنا لم أكمل القصة بعد . نحن مخلوقات خاضعة
للمؤثرات الخارجية — لا تخلق شيئاً داخل أنفسنا — فكما اتخذنا
طريقاً جديداً للتفكير أو العقيدة أو العمل فإنما يأتيها الدافع من الخارج
عاش الكافر فريسة للندم على فعلته ، فأذاب هذا الندم روح البغض
للبانة الطفل وجعله ينظر إليها بشيء من التسامح ، ثم بشيء من العطف
وذلك من أجل الطفل ومن أجل أمه) ، وأخيراً وجد نفسه يدرس هذه
البانة ؛ ومنذ تلك اللحظة أصبح تقدمه في طريقه الجديد سريعاً
ومضموناً « اعتنق العقيدة المسيحية فأصبح ندمه على استلاب إيمان
الطفل المريض وحرمانه من المغفرة أشد من حرارة من قبل . حرمة الندم
نعمة السلام والراحة ، ولكن لا بد له من السلام والراحة — فهكذا
يقضى قانون الوجود . لم يبق له غير طريق واحد لينال سلامة الروح
وراحة البال لا بد له من تكريس نفسه لإيقاظ الأرواح المستهدفة للخطر ،
فقدماً مبشراً . سافر لبلاد تدين بغير المسيحية ، ونزل بها مريضاً ليس له

من نصير . أخذته أرملة من أهل تلك البلاد إلى دارها المتواضعة ومرضته
بمناية حتى أوصلته إلى دور النقاهة ، وعندئذ مرض ابنها وبرح به
المرض وتقدم المبشر لمساعدتها اعترافاً منه بجميلها . وهنا صادفته أول
فرصة لإصلاح الخطأ الذي ارتكبه في حق الطفل الأول ، بأن يؤدي
خدمة لهذا الطفل الجديد ، فيمحو بالتدريج إيمانه الأبله بألهة زائفين .
نجح في هذه المحاولة ، ولكن الطفل حين حضرته الوفاة ، عانته في آخر
لحظة من حياته فقال :

« كنت مؤمناً وكنت سعيداً بإيماني ، ولكك أضمت هذا الإيمان ،
وأضمت معه راحة بالي ؛ والآن لم يبق لي ما أعز به ، وإني لأموت
شقياً ، لأن الأشياء التي حدثتني بها لا تملأ مكان العقيدة التي فقدتها » .
كما أن الأم عانت البشر فقالت :

« خسرت ابني وخسر هو نفسه إلى الأبد ، وبات قلبي يلهبه
يلهبه الحزن ، كيف سمحت لنفسك بأن تفعل هذه الفعلة القاسية ؟ نحن
لم نسيء إليك بل بالعكس أحسنا ، جعلنا من دارنا بيتاً لك ؛ وجعلنا
كل ما نملك رهن تصرفك أو هكّدا يكون الحزاء ؟ »
فامتلاً قلب المبشر بالندم على ما فعل وقال :

« كان ما فعلته خطأ — وإني أرى ذلك الآن ولكني ما أردت
إلا نفعه . كنت أعتقد أنه على خطأ ، وبدأ لي أن من واجبي أن أعلمه
الحقيقة » .

فقالت الأم :

« لقد علمته خلال حياته القصيرة ما اعتقدت أنه الحق ، وكنا
كلانا سعيدين بإيمانه بهذه العقيدة . ولكنه الآن مات بعد أن حسر

نفسه ، وأنا غدوت شقية نعمة . فمقيدتنا جاءتنا خلال أجيال متعاقبة من الأسلاف المؤمنين . فبأى حق سمحت لنفسك أن تكمر صفو هذه العقيدة أين كان شرفك ؟ أين كان حياؤك ؟ »

فكان لألم البشر وندمه وإحساسه بفدوره في هذه الحالة نفس المرارة ونفس العذاب المستمر الذى سببته فعلته الأولى هذه هي نهاية القصة فامعليقك ؟

الشاب : لقد كان ضمير الرجل أبله ، كان ضعيفاً ، كان لا يميز بين الحق والباطل .

الشيخ : لا يؤسفنى أن أسمك تقول ذلك ، فإن كنت تقر بأن ضمير رجل واحد لا يميز بين الحق والباطل ، فهذا اعتراف بأن هناك ضائر أخرى تشبه وهذا الاعتراف وحده يكفى لهدم النظرية القائلة بأن حكم الضمير لا يخطئ . وفى نفس الوقت هناك شيء أرجو أن تلاحظه .

الشاب : وما هو ؟

الشيخ : هو أنه في كلتا الحالتين لم تصادف الرجل متعاقب نفسية أثناء قيامه بعمله ، بل كان راضياً عنه كل الرضا وسره أن يقوم به ، ولكن حين سبب له المآل فيما بعد أسف على ما فعل ، نعم يؤسف أنه كان مبغماً لآلام الآخرين ، ولكن لن نجد لأسفه سبباً بالمرّة غير هذا ، وهو أن آلامهم ترتب عليها آلامه هو . . . فضائرنا لا تمنعها آلام الآخرين حتى تصل إلى حد تغدو فيه مبغماً لآلامنا نحن . أى أنه في كل حالة — وبدون استثناء — نجد أنفسنا غير عابئين بما يمانيه غيرنا إلا إذا آثار شقاؤهم شعوراً بعدم الارتياح عندنا . فأنا لا أشك في أن عدداً

كبيراً من الكفار ما كان ليؤثر فيهم ما حل بتلك الأم المسيحية التي
كنّا نتحدث عنها ألا تعتقد ذلك ؟

الشاب : نعم وأعتقد أن قولك هذا يمكن أن ينطبق على كل كافر عادى .
الشيخ : كما أن عدداً كبيراً من المبشرين ممن يتعصبون لواجبهم ما كان
ليؤثر فيهم ما حل بالأم الكافرة — مثال ذلك المبشرين الجزويت في
كندا في أوائل زول الفرنسيين بها ، ويمكنك أن تقرأ بنفسك ما كتبه
عنهم باركان .

الشاب : أظننا نكتفي بهذا القدر من الحديث اليوم ، إلى أى نتيجة
وصلنا الآن ؟

الشيخ : إلى هذه النتيجة : إننا (بنى الإنسان) قد ألصقنا بأنفسنا عدداً
من الصفات جعلنا لها أسماء خداعة : الحب ، والكره ، والإحسان ،
والعطف ، والبخل ، والرحمة ، وهكذا . أقصد أننا نلصق « معاني »
خداعة بهذه الأسماء فهي كلها مظاهر لإرضاء النفس ، ولكن الأسماء
تلبس هذه الحقيقة (إرضاء النفس) من الآثواب ما يشغل انتباهنا عن
رؤية الحقيقة نفسها .

ثم إننا أدخلنا في القاموس كلمة ما كان ينبغي لها أن تظل هناك
وهي « التضحية بالنفس » ، فهذه الكلمة تعبر عن شيء واحد لا وجود
له . ولكن الأسوأ من هذا كله أننا نتجاهل ولا نذكر مطلقاً الدافع
الوحيد الذي يعلو على الإنسان كل أعماله ، وهو الحاجة الملحة لضمان
رضاء عن نفسه في كل ظرف وبأى ثمن . فما نحن إلا من صنع هذا
الدافع . هو لنا بمثابة الأنفاس والقلب والدم ، هو « المهماز » الذي

يخزننا والسوط الذى يلهبنا ، هو القوة الدافعة التى لا نملك غيرها ، وبدونه نصبح صوراً وأجساداً لا حياة فيها . فلا تجد من يكلف نفسه عناء القيام بأى عمل ، وينعدم التقدم انعداماً تاماً ، ويتوقف نشاط العالم نهائياً ، فيجب أن نقف خاشعين حين يذكر اسم هذه القوة الهائلة .

الشاب : أنا غير مقتنع .

الشيخ : سوف تقتنع حين تفكر .

الفصل الثالث

أمثلة في الموضوع

الشيخ : هل أوليت مذهب « استرضاء الذات » شيئاً من تفكيرك منذ تحدثنا ؟

الشاب : نعم ، فعلت ذلك .

الشيخ : كنت أنا الذي وجهتك إلى هذا التفكير ، أى أن « مؤثراً خارجياً » هو الذي وجهك إليه — فالفكرة لم تنبت في رأسك من تلقاء نفسها ، هل لك أن تعى هذا جيداً ولا تنساه ؟

الشاب : نعم . ولماذا ؟

الشيخ : لأننى أرحو أن أتمكن في إحدى محادثتنا القادمة من أن أفنمك تدريجياً بأنك لن تقدر ، ولن أقدر أنا ، ولن يقدر أى إنسان آخر على خلق فكرة جديدة لم يسبق لها وجود إلا في عقله هو ، فقائل أى فكرة إنما يردد فكرة سابقة .

الشاب : ولكن ...

الشيخ : انتظر ، احتفظ بعمليةك حتى يأتى موضعه من مناقشتنا — غداً أو بعد غد مثلاً . والآن خبرنى هل أعملت فكرك في المبدأ القائل بأن كل تصرفات الإنسان تصدر عن دافع لا يعنيه إلا « إرضاء الذات » أولاً لقد بحثت ، فإدا وحدث ؟

الشاب : لم يصادفنى حسن الحظ ، فقد بحثت أعمالاً كثيرة وبديعة وردت

في القصص والسير ، وتبدو فيها روح التضحية بالنفس ولكن . . .
الشيخ : بالبحث والتحليل اختفت تلك التضحية الظاهرة ، أليس كذلك ؟
هذا هو الشيء المنتظر بطبيعة الحال .

الشاب : ولكن في هذه القصة حدث أعتقد أن التحليل لن ينقص من
عنصر التضحية الذي يحويه ، في غابات « آديرونداك » يعيش خطاب
متدين ذو أخلاق عالية يستقل بجانب عمله واعظاً ، ويحدث يوماً أن
يأتى إلى الغابة أحد سكان نيويورك ممن يشتغلون بأعمال الخير في الأحياء
الفقيرة — فهو رئيس لأحد أقسام حركة جامعية للإصلاح في هذه
الأحياء ، يثير وجود هذا الغريب في نفس « هولم » الخطاب الواعظ
رغبة جامحة في أن يهجر مصالحه الدنيوية ليكرس نفسه للدعوة للخير في
« إيست سايد » ، للوعظ بين جماعات صغيرة من الفقراء الأجانب
أنصاف المتدينيين الذين يسخرون منه طول الوقت . يتقبل السخرية
مسروراً وراضياً نظراً لأنه إنما يعاني ما يعانيه من أجل المسيح ، لقد
ملأت رأسي بالشكوك لدرجة أنني كنت أتوقع دائماً أن أجد دافعاً
لا يدعو للثقة مختبئاً خلف هذا العمل ولكشى فشلت لحسن الحظ ، فقد
رأى هذا الرجل واجبه ونحى بنفسه في سبيل هذا الواجب ، واحتمل
العناء الذي فرضه عليه هذا الواجب .

الشيخ : هل هذا كل ما قرأت ؟

الشاب : نعم .

الشيخ : دعنا نذهب إلى أبعد مما قرأت . فحين اعتقد أنه « يضحي بنفسه »
(وليس ذلك من أجل الدين كما كان يظن بل من أجل إرضاء ذلك

الدافع الجبار الذى لا يثنى ولا يتحول والذى يسيطر على كيانه من
الداخل (هل ضحى فى نفس الوقت بأشخاص آخرين ؟
الشاب : ماذا تعنى ؟

الشيخ : لقد تنازل عن عمل يدر عليه الربح بينما عمله الجديد لا ينيله أكثر
من مجرد الغذاء والسكن ، هل كان له من يعولهم ؟
الشاب : نعم .

الشيخ : كيف وإلى أى حد أثرت فيهم « توضيحته بنفسه » ؟
الشاب : كان يعول والدًا مسنًا ، وكانت له أخت صغيرة ذات صوت جميل —
وكان يعينها على تلقى دروس فى الفناء والموسيقى حتى تتمكن فيما بعد من
أن تحقق أملمها فى أن تعول نفسها ، كما أنه ينفق على تعليم أخ صغير فى
مدرسة للفنون والصناعات يرغب فى أن يصبح مهندسًا مدنيًا .

الشيخ : هل انتقص تصرف صاحبنا من راحة أبيه ؟
الشاب : بالطبع ، إلى حد بعيد .
الشيخ : هل أوقفت دروس الموسيقى للأخت الصغيرة ؟
الشاب : نعم .

الشيخ : وتعليم الأخ الصغير نزلت به ضربة قاضية أنهت الحلم السعيد ،
فكان عليه أن يذهب لقطع الخشب أو أن يفعل شيئًا من هذا القبيل
حتى يعول والده المسن أليس كذلك ؟

الشاب : نعم ، هذا هو ما حدث على وجه التقريب .
الشيخ : يا لها من توضيحة بديةة ! يخيل لى أنه ضحى بجميع أفراد الأسرة
إلا نفسه . ألم أقل لك إنه ما من إنسان يضحي بنفسه مطلقًا ، وأن
ليس هناك أى مثال لتضحية من هذا النوع ، وإنه حين يطلب « الحاكم

الداخلي « لإنسان إرضاء من أى نوع سواء أ كان ذلك الإرضاء مؤقتاً أم دائماً فإن ما يطلبه ينفذ فلا نعصى له أمراً ، بصرف النظر عن يقفون فى طريق التنفيذ أو يقاسون بسبب هذا التنفيذ . لقد حطم الرجل أسرته ليرضى ويشبع ذلك « الحاكم الداخلى » .

الشاب : وليخدم الدين .

الشيخ : نعم . ولكن هذا يأتى فى المرتبة الثانية وليس فى المرتبة الأولى ، وإن كان هو يعتقد أن خدمة الدين كانت الدافع الأول .

الشاب : لك أن تعتقد ذلك إن أردت ، ولكن من الممكن أنه برر تصرفه بهذه الطريقة : وهى أنه إذا هدى مائة شخص فى نيويورك . . .

الشيخ : فهو محق فى توضيحية أسرته مقابل هذا الكسب الروحى ، مقابل هذا . . . ماذا نسميه ؟

الشاب : هل نسميه الاستثمار ؟

الشيخ : لا أظن . هل تستعمل كلمة « المضاربة » ؛ هل تستعمل كلمة « المقامرة » ؟ لم يكن لديه ضمان بهداية فرد واحد . . . وإذن فقد كانت المسألة مقامرة رهن أسرته فى سبيل هذه المقامرة . وعلى كل حال فلننظر ماذا كانت النتيجة فلعلنا نظفر بمعرفة الدافع الخفى — الدافع الحقيقى الذى وجهه نحو « التوضيحية بأسرته » من أجل الدين بينما هو يتبع خرافة تجعله يعتقد بأنه إنما « يضحي بنفسه » حقيقة ، سوف أقرأ فصلا من القصة . . ها هو ! . . . نعم ، كان لابد للدافع من أن ينكشف فى وقت من الأوقات .

أخذ يعمل فى وعظ حثالة سكان « إيست سايد » ردحا من الزمن ثم عاد إلى حياته الأولى فى معسكر الخطايين ليحيا مغموراً مجهولاً .

« وقد نال منه الأسى وتحطم كبرياؤه » — على حد تعبير المؤلف .
ولماذا ؟ ألم تكن هذه المجهودات التي قام بها صاحبنا خالصة لوجه الله . .
ألم تكن مقبولة في نظر الخالق ؟ يا إلهي ! لقد نسيت المؤلف هذه الحقيقة
ال بسيطة بل هي لا تشير إليها بالمرّة ؛ نسيت أن « الأعمال بالنيات »
لا بالتأنيج ، فما هي مشكلة صاحبنا إذن ؟ نجد المؤلف تتخلّى بشكل
ساذج ، بشكل لا شعورى عن موقفها الأصلي حيال الموضوع ، المشكلة
تتلخّص فيما يأتى : كل ما عمله ذلك الرجل هو أنه تطوع لوعظ الفقراء ،
ولم يكن نشاط حركة الإصلاح الجامعية قاصراً على هذا المجهود التواضع
فحسب بل هي تعنى بأمور أكبر وأهم ، فلم يتحمس أنصارها لتلك
البلادة الفجة التي غالباً ما يمتاز بها دعاة « جيش الخلاص » .

عامله رجال حركة الإصلاح بأدب يمازجه برود ، لم يدلّوه ولم
يفتحوا له صدورهم مرحبين ، ثم تستطرد المؤلف قائلة « ضاع كل ما كان
يحلم به من مجد ومدح ، وتقدير من جانب . . . » من جانب من ؟
المنيح ؟ كلا ، لم تذكر المؤلف ذلك . من جانب من إذن ؟ « من
جانب زملائه العمال » . لماذا أراد تقديرهم ومدحهم ؟ لأن الدافع الذي
يسيطر عليه ، لأن السيد الذي يتحكم في كيانه من الداخل أراد ذلك ،
ولم يقنع بما دون ذلك ، فهذه الجملة المؤكدة التي قرأتها لك تكشف عن
السر الذي كنا نبحث عنه — تكشف عن الدافع الأصلي ، الدافع
الحقيقي الذي دفع بحطاب « آديرونداك » المغمور ليضحي بأمرة
ويذهب إلى تلك الحرب الصليبية في « لايس سايد » .

وإذن فالدافع الأصلي هو أن صاحبنا عمل ما عمل ليعرض أمام
أنظار عالم يحمله مقدار ما حبته به الطبيعة من مواهب تؤهله للتفوق

والبروز ، فكما ذكرت لك من قبل ليس هناك عمل يصدر عن غير هذا القانون ، وهذا الدافع . ولكن أرجوك ألا تقبل قانوناً لمجرد أنى أنا الذى أقول به ، بل عليك أن تناقشه وتمحصه ، فكلمها قرأت أو سمعت عن عمل ينطوى على التضحية بالذات ، أو عن واجب يؤدي من أجل الواجب ليس إلا ، فعليك أن تحلله وأن تنفذ بين ثناياه باحثاً عن الدافع الحقيقى وسوف تجد ذلك الدافع دائماً .

الشاب : إنى أعمل ذلك كل يوم . لا أملك أن أمتنع عن عملية التحليل هذه بعد أن وجهتني في هذا الاتجاه الهدام . هى عملية مسلية وكريمة في نفس الوقت فكلمنا صادقت في كتاب عملاً مجيداً أجد نفسى مضطراً للوقوف أمامه لأختبره . ليس بوسى أن أمتنع نفسى .

الشيخ : هل وجدت مثلاً واحداً يناقض القاعدة .

الشاب : لا — على الأقل لم أجد بعد . ولكن إليك هذا المثال : عادة دفع البقشيش للخدم في أوروبا . أنت تدفع لإدارة الفندق حساباً خاصاً بالخدمة . ليس عليك أن تدفع شيئاً للخدم ؛ ولكنك مع ذلك تنفعهم شيئاً ، ألا يناقض هذا قاعدتك ؟

الشيخ : وكيف ذلك ؟

الشاب : أنت لست مضطراً للدفع ، وعلى هذا فأنت تتصرف بهذه الطريقة لمجرد عطفك على حالتهم المالية ، وأجورهم الضئيلة . . .

الشيخ : هل حدث أن سببت لك هذه العادة نوعاً من المضايقة ؟

الشاب : نعم

الشيخ : ولكنك مع ذلك خضعت لها ؟

الشاب : بالطبع .

الشيخ : بالطبع . ولماذا ؟

الشاب : العادة تسرى سريان القانون إلى حد ما ، والقوانين تستلزم نوعاً من الخضوع . وهذه العادة بالذات يقرها الجميع كنوع من الواجب .
الشيخ : وعلى ذلك فأنت تدفع هذه الضريبة التي تسبب لك كثيراً من المضايقة من أجل القيام بالواجب ليس إلا ؟

الشاب : لا أظن الأمر يخرج عن ذلك .

الشيخ : إذن فالدافع الذي يميل بك نحو أداء ضريبة « البقشيش » ليس كله عطفاً وإحساناً وبرا ؟

الشاب : لعلك مصيب في استنتاجك .

الشيخ : إن لم يكن كل الدافع فقد يكون بعضه ؟

الشاب : ربما أكون قد تسرعت في تحديد مصدر هذا العمل .

الشيخ ربما . وإذا تجاهلت عادة « البقشيش » فهل تحصل على خدمة سريعة فعالة ؟

الشاب : لا تغالط نفسك ، لن تحصل في هذه الحالة على أية خدمة بالرة من أولئك الخدم الأوربيين .

الشيخ : ألا يمكن اعتبار هذا حافزاً يوجهك نحو دفع تلك الضريبة .

الشاب : أنا لا أنكر ذلك .

الشيخ : يبدو لي إذن أنها حالة من حالات « الواجب من أجل الواجب » مضافاً إليها شيء من المصلحة الذاتية ؟

الشاب : نعم . يمكن قبول هذا التفسير . ولكن هناك نقطة أخرى ، وهي

إننا ندفع الضريبة مع علمنا بأنها استغلال جشع غير عادل ، ومع ذلك نحس بالألم إذا تركنا أولئك المساكين ونحن نعتقد أننا قد عاملناهم

بشيء من البخل ، وترجو من صميم قلوبنا لو أننا رجعنا إليهم لنكفر
عن خطئنا فنعمل الصواب ، بل وأكثر من الصواب ... لنؤتي البر .
وأظنك واجداً صعبة كبرى إن حاولت أن تكشف عن فكرة « الذات »
في هذا الدافع النبيل .

الشيخ : ظنك يدعوني للعجب ، حين تجد مبلغاً خاصاً « بالخدمة » مسجلاً
ضمن قاعة حساب الفندق هل يضايقك هذا ؟
الشاب : كلا .

الشيخ : هل حدث أن شكوت من قيمة هذا المبلغ ؟
الشاب : كلا . ولن يخطر ببالى أن أفعل .

الشيخ : إذن فليس « الحساب » هو مبعث المضايقه لأنه مبلغ محدد وأنت
تدفعه عن طيب خاطر ، تدفعه بدون أدنى اعتراض ، وعلى فرض أن
كل خادم وخادمة حدد قيمة المبلغ الذى تدفعه له فيما بينك وبينه ،
فهل ترضيك مثل هذه الخطة ؟

الشاب : ترضينى ؟ إنما تفرحنى .

الشيخ : ولو كانت الضريبة المحددة أكثر قليلاً من المبلغ الذى تعودت أن
تدفعه من تلقاء نفسك « كبقشيش » ؟
الشاب : نعم .

الشيخ : حسناً إذن . أفهم من ذلك أن ما يوجهك نحو أداء هذه الضريبة
ليس العطف بل وليس الواجب ، وأن ما يضايقك ليس مبلغ الضريبة ،
ولكن مع ذلك هناك شيء يضايقك . فما هو ؟

الشاب : المشكلة هي أنك لا تعرف ماذا عليك أن تدفع ، فإن القيم تختلف
اختلافاً يبنياً من مكان إلى آخر في أوروبا .

الشيخ : إذن فعليك أن تحدى ؟

الشاب : ليست هناك طريقة أخرى ، فتظل طول الوقت تفكر وتفكر ، وتحسب وتحمن ، وتتشاور مع غيرك لتستبين وجهة نظرم . وهذا الاهتمام يفسد عليك نومك أثناء الليل ، ويجعلك في حالة قلق دائم أثناء النهار ، وحين تتظاهر بأنك تشهد المناظر والأماكن ، فأنت في الواقع مشغول طول الوقت بجدسك وتحمينك — وهكذا لا ينتهى لك هم أو قلق .

الشيخ : وكل هذا من أجل دين لست مطالباً به بل وليس عليك أن تدفعه إلا بمحض اختيارك ! يا للعجب !! وما هي الغاية التي تريد أن تصل إليها عن طريق جدسك وتحمينك ؟

الشاب : هي أن أعرف مقدار ما ينصح أن أعطيهم بدون أن أظلم أحداً منهم .

الشيخ : تبدو على هذا التصرف مظاهر النبيل ، فأنت تتحمل كل هذه الآلام وتضيق كل هذا الوقت في محاولتك أن تتصرف بمعدل نحو خادم لا ترتبط نحوه بأى التزام سوى أنه في حاجة للمال لضآلة الأجر الذى يتقاضاه .

الشاب : أعتقد أنه لو وجد وراء هذا العمل حافز لا ينطوى على معنى النبيل فإننا سوف نرهق أنفسنا بحثاً عنه بدون جدوى .

الشيخ : كيف يتيسر لك أن تعرف أن المبلغ الذى دفعته لخادم أقل مما يجب ؟

الشاب : تجده في هذه الحالة صامتاً . لا يعبر عن شكره ، وأحياناً يلقى عليك نظرة تذيبك خجلاً . كبرياؤك لا تسمح لك بإصلاح خطئك حينذاك وحولك أناس ينظرون ما أنت فاعل ؟ ولكنك فيما بعد تتعنى لو أنك كنت دفعت ما ينتظره منك .

وأحياناً تحكم من القرائن أنك أصبت عين الهدف فتتركه وأنت

تشعر بمنتهى الارتياح . وفي أحيان أخرى يطنب الرجل في شكرك بحيث تعلم أنك أعطيته أكثر بكثير من القدر اللازم .

الشيخ : اللازم ؟ اللازم لأي شيء ؟

الشاب : لإرضائه .

الشيخ : وما شعورك في مثل هذه الحالات الأخيرة ؟

الشاب : ندم .

الشيخ : أعتقد أنك لم تكن تشغل بالك بمحاولة استنتاج ما يستحقه الخادم ، بل بمحاولة معرفة ما يرضى الخادم ، وأرى أن المسألة فيها نوع من خداع الذات .

الشاب : وكيف ذلك ؟

الشيخ : إذا أعطيته أقل مما كان ينتظر فإنه سوف يلقى عليك نظرة « نخجلك أمام الناس » وهذا بالطبع سوف يسبب لك ألمًا . فالألم أنك أنت — أى أنك تعمل من أجل نفسك وليس من أجله . وإذا أعطيته أكثر مما يجب فسوف تخجل من نفسك ، وهذا الخجل يسبب لك ألمًا — وهذه حالة أخرى من حالات تفكيرك في نفسك ، إنقاذ نفسك من الشعور بعدم الارتياح .

فأنت لا تفكر في الخادم مطلقًا — اللهم إلا لتحوز الوسيلة التي تنال بها رضاه ، فإذا نلت رضاه عنك ، نلت رضاك من نفسك ، وهذا هو الشيء الوحيد الذى تبحث عنه ، وبذلك يغدو ضميرك ، يغدو السيد المسيطر على كياناتك من الداخل راضياً ، قانعاً ، مرتاحاً .

وفيا عدا هذا الضمير ليس هناك شيء آخر ذو أهمية أولية في كل العمليات التى ذكرناها .

أمثلة أخرى

الشاب : ولكن كيف أسمح لنفسى بإنكار التضحية بالذات من أجل الآخرين بإنكار أسمى ما يمكن أن يتصف به إنسان .

الشيخ : أنتهمنى بقول ذلك ؟

الشاب : طبعاً .

الشيخ : لا ، أنا لم أقل ذلك .

الشاب : ماذا قلت إذن ؟

الشيخ : إنه ما من إنسان ضحى بنفسه بالمعنى المفهوم عادة من هذا التعبير —

أى تضحية النفس من أجل الآخرين فحسب . بل يقوم كثير من الناس يومياً بتضحيات من أجل الآخرين ، ولكنها فى عين الوقت تكون من أجل أنفسهم أولاً وقبل كل شيء ، يجب أن يؤدى تصرفهم إلى إرضاء أنفسهم أولاً . أما من عداهم فيأتون فى المرتبة الثانية .

الشاب : وهل تنطبق نفس القاعدة على أداء « الواجب من أجل الواجب » .

الشيخ : نعم . فما من إنسان يقوم بواجب من أجل الواجب فحسب ، بل لابد أن يؤدى عمله إلى إرضاء نفسه أولاً — لابد أن يشعر (للمجرد قيامه بالواجب) براحة نفسية أكبر مما لو أهمل الواجب ، وإلا امتنع من أدائه .

الشاب : خذ على سبيل المثال حادث غرق السفينة « بركلى كاسل » .

الشيخ : نعم ، هذا مثال لواجب نبيل نفذ بمنتهى المظمة . حلل الحادث إلى عناصره واختبره إن أردت .

الشاب : سفينة من السفن البريطانية لنقل الجنود كانت تحمل عدداً كبيراً

من الجنود وزوجاتهم وأطفالهم ، اصطدمت بصخرة وبدأت تفرق ،
لم تكن زوارق النجاة تسع لغير النساء والأطفال ، صف الكولونيل
فرقه فوق سطح السفينة وقال « إن من واجبنا أن نموت حتى يتسنى
إنقاذهم » . لم يكن هناك أدنى اعتراض أو شكوى ، حملت الزوارق
النساء والأطفال في عرض البحر ، وحين أتت لحظة الموت اتخذ
الكولونيل والضباط أما كنهم واصطف الجنود كما يفعلون في مناسبات
الاحتفال أو العرض ، وبينما علمهم يخفق فوق رؤوسهم وطبولهم تدق
بحماس وحرارة غاصوا في اليم شيئاً فشيئاً ، وهكذا ضحوا بأنفسهم من
أجل الواجب . هل يمكنك أن ترى الحادث في ضوء غير هذا ؟

الشيخ : نعم ، نعم . . . كان لعملهم مثل هذا الجلال ومثل هذا السمو !
هل تعتقد أنه كان باستطاعتك أن تظل ثابتاً بين هذه الصفوف وتلقى
حقتك بعنل هذه الشجاعة .

الشاب : باستطاعتي ؟ وأنى لي مثل هذا الثبات ؟
الشيخ : فكر ، تخيل نفسك هناك . . . تخيل ذلك المسير المحموم
يبتلعك بمنل هذا البطء ، شيئاً فشيئاً .

الشاب : بإمكانى أن أتخيل كل هذا ، ولانى لأحس بكل ما يبعثه من هول
وفزع . ما كان باستطاعتي أن أحتمله ولا أن أظل ثابتاً في مكاني ، أنا
وائق من ذلك .

الشيخ : لماذا ؟

الشاب : لأنى أعرف نفسي ، وأعلم أنى لا أقدر على فعل ما فعله أولئك الجنود .

الشيخ : لو أنك كنت بينهم لكان من واجبك الثبات .

الشاب . أعلم ذلك ، ولكنى ما كنت أقدر .

الشيخ : لقد كانوا أكثر من ألف رجل ، ومع هذا لم يضطرب واحد منهم ، لا بد أن بمضهم ولدوا ولهم نفس مزاجك واستعدادك ، فإن كانوا قد قاموا بهذا الواجب فكيف لا تقدرات ؟ ألا تعلم أن بوسمك أن تذهب فتجتمع ألف كاتب وعامل وتضعهم معا على ظهر سفينة ، فلو أنك سألتهم أن يموتوا من أجل الواجب فلن يبق منهم في أمانهم عشرون على أكثر تقدير .

الشاب : نعم ، أعلم ذلك .
الشيخ : ولكنك إن دربتهم ودفعت بهم إلى معركة أو معركة فسوف يصبحون جنوداً ، لكل منهم كبرياء الجندى ، واعتداد الجندى ، والمثل العليا للجندى ، وحينئذ يصبح من واجبهم إرضاء نفسية الجندى ، لا نفسية كاتب أو نفسية عامل وهل يمكنهم إرضاء تلك الروح بالهرب من واجب الجندى ؟
الشاب : لا أظن ذلك .

الشيخ : إذن فسوف يعملون الواجب ، لا من أجل الواجب بل من أجل أنفسهم أولاً ، فالواجب هو هو ولم يتغير ، وكانت تقتضيه نفس الضرورة حين كانوا ككتبة وعمالا — حين كانوا « بادئين » . ولكنهم ما كانوا ليؤدوه لمجرد أنه واجب أو لمجرد أن الضرورة تقتضيه ، فكذلك وكتبة كانت لهم مثل عليا من نوع آخر ، وروح من نوع آخر ، وكان عليهم إرضاء تلك الروح وتلك المثل ، وقد أرضوها فعلا — وحدوا أنفسهم مضطرين لإرضائها ، هذا هو قانون تكوينهم .

إن للتدريب قوة هائلة ، وتدريب المرء حتى يتشبع بمثل عليا أسمى وأسمى يستحق تفكير كل إنسان وبجهوده ومثابرته

الشاب : ولكن مارأيك في رجل لا يتحول عن واجبه نحو عقيدته ولو أعدم حرقاً ؟

الشيخ : هذا رهين بشيئين : تكوينه وتدريبه ، هو لا يملك إلا أن يرضى الروح التي بين جنبيه ولو كلفه ذلك فقد حياته ، ولعل رجلاً آخر يؤمن بعقيدته نفس الإيمان (ولكن تكوينه من نوع مختلف) لا يجد في نفسه القدرة على التضحية من أجل الواجب ، بينما هو يعترف به كواجب ، ويمحزنه عجزه عن التضحية ، هذا الرجل بدوره لا يملك إلا أن يرضى الروح التي بين جنبيه ، هو لا يمكنه أن يؤدي الواجب من أجل الواجب فيموت بالإعدام حرقاً ، لأن هذه التضحية لا ترضى نفسه ، وإرضاء النفس يأتي قبل كل اعتبار آخر — يأتي قبل كل واجب آخر .

الشاب : لنأخذ على سبيل المثال حالة رجل الدين الذي لا تشوب أخلاقه شائبة ، والذي يعطى صوته في الانتخابات لصالح لص في تذكرة حزبه ، وضد رجل شريف في تذكرة الحزب الآخر .

الشيخ : هو مضطر لأن يرضى نفسه أولاً . تنعدم معايير الأخلاق العامة ، ومعايير الأخلاق الخاصة حين توضع مصالح حزبه في كفة الميزان . هو لن يتبع إلا طبيعة تكوينه وتدريبه .

الفصل الرابع

التدريب

الشاب : أرك لا تنفك عن استخدام هذه الكلمة (التدريب) هل تعنى بها...
الشيخ : الدراسة ، التعليم ، المحاضرات ، الوعظ ؟ هذه تكون جزءاً من
عملية التدريب ولكنه جزء غير كبير ، أنا أقصد بالتدريب كل المؤثرات
الخارجية . هناك ملايين منها ، فن المهد إلى اللحد وفي خلال كل
ساعات اليقظة بظل الكائن البشرى واقفاً تحت تأثير عملية التدريب .
وفي الطبقة الأولى من مدربيه ، يأتي « ترابط الماني » — فيئته
هى التى تؤثر فى عقله وفى شعوره ، وتعدّه مثله العليا — هى التى تضعه
فى بداية الطريق وتستبقية سائراً فيه ، فإذا حاد عن ذلك الطريق فسوف
يجد الناس الذين يحبهم ويقدرهم ، والذين يهتم برأيهم فيه يتجنبونه
ويتحاشونه ، هو أشبه ما يكون بالحرياء ، إذ بمقتضى قانون طبيعته يتخذ
لون المكان الذى يلجأ إليه ، والمؤثرات المحيطة به هى التى تخلق أمياله ،
ومبادئه ، وذوقه ، وأخلاقه ، وديانته . . . وهكذا .

هو لا يخلق شيئاً من هذه الأشياء لنفسه ، قد يمتدّد أنه يخلق ،
ولكن ذلك راجع إلى أنه لم يدرس الموضوع جيداً . هل رأيت أحداً
من أتباع مذهب « البرسبتيريان » ؟

الشاب : رأيت كثيرين .

الشيخ : كيف حدث أن أصبحوا برسبتيريان ولم يصبحوا عماديين ؟ ولماذا

لم يكن الهاديون كاثوليكاً ، ولم يكن الكاثوليك بوذيين ، ولم يكن البوذيون هندوسيين ، ولم يكن الهندوس لادينيين ، ولم يكن اللادينون روحانيين ، ولم يكن الروحانيون ملحدين ، ولم يكن الملحدون « مثوديست » ، ولم يكن « المثوديست » من أتباع كونفوشيوس ، ولم يكن أتباع كونفوشيوس من رجال جيش الخلاص ، ولم يكن رجال جيش الخلاص مُورمُون . . . وهكذا ؟

الشاب : يمكنك أن تجيب عن سؤالك بنفسك .

الشيخ : هذه القائمة بأسماء المذاهب ليست مسجلاً لدراسات تستهدف البحث عن الحقيقة ، بل هي تبين ما يمكن أن يعمل تراطبات المعاني ، فإن أنت عرفت جنسية شخص ما أمكنك أن تحزر نوع ديانتة بشيء كثير من الدقة : إنجليزي — بروتستانتى ؛ أمريكى — بروتستانتى ؛ فرنسى ، إيرلندى ، إيطالى ، نمساوى — كاثوليكى ؛ روسى — أرثوذكسى ؛ تركى — مسلم وهكذا دواليك .

وحين تعرف المذهب الدينى لشخص يمكنك استنتاج نوع الكتب التى يقرؤها حين يريد الاستزادة من نور الإيمان ، ونوع الكتب التى يتحاشاها حتى لا يلحقه من الإيمان أكثر مما يريد .

وفى أمريكا إذا عرفت لون الحزب الذى ينتمى إليه ناخب ، أمكنك أن تعرف الارتباطات القائمة فى ذهنه : كيف كوزن آراءه السياسية ، وأى الصحف يقرأ ليزداد إيماناً بهذه الآراء ، وأيهما يتجنب عن عهد وإصرار ، وأى الاجتماعات العامة يحضر ليضيف إلى معرفته بالسياسة ، وعن أيها يتغيب اللهم إلا إذا أراد إعلان معارضته بقذف الأحجار .

نحن نسمع كثيراً عن أشخاص يقضون وقتهم في « البحث عن الحقيقة » ، ولكنني لم أسمع مطلقاً عن شخص واحد داوم البحث عنها بدون انقطاع أو توقف ، ولا أظن أنه وجد في وقت من الأوقات إنسان هذا شأنه — وإن كنت قد رأيت عدداً من الناس « اعتقدوا » مخلصين أنهم دائمو « البحث عن الحقيقة » . ويبحثوا وثابروا ؛ يبحثوا باهتمام وحذر ؛ تعمقوا في البحث ؛ أظهروا منتهى النزاهة فيما استخلصوه من أحكام . . . حتى جاء وقت ظنوا فيه أنهم قد وصلوا إلى « الحقيقة » التي لا يأتيها الشك من بين يديها ولا من خلفها — فكانت هذه هي نهاية بحثهم .

كان الباحث من بين هؤلاء يقضى البقية الباقية من عمره في اصطيد الحجاج والبراهين التي يدفع بها الأذى عن « حقيقته » . فإن كان همه البحث عن الحقيقة السياسية فهناك مائة مذهب سياسي تتحكم في سكان هذا العالم وهو لا بد واجد راحته في أحد هذه المذاهب . وإن كان همه البحث عن « الدين الحق » الذي لا حق بعده ، فلا شك أنه سوف يصادف العقيدة التي ترضى مطالب نفسه في إحدى الديانات البالغ عددها ثلاثة آلاف تقريباً ، والتي تتداولها العقول في دنيا العقائد . وفي كلتا الحالتين حين « وجد الحقيقة » توقف عن البحث ، ولكنه من ذلك اليوم ظل يرتق كل ما يظهر له فيها من فتحات قد تسهل على معارضيه أن يناوئوا منه . لقد وجد من الباحثين عن الحقيقة بشكل مؤقت يعجز المرء عن أن يحصيهم عدداً — ولكن هل تصادف أن سمعت عن إنسان بحث باستمرار إلى ما لا نهاية ؟ إن طبيعة الإنسان تجعل وجود مثل هذا الشخص أمراً مستحيلاً .

ولكن لنعد إلى موضوعنا الأصلي (التدريب) . فشكل حالة من حالات التدريب ليست إلا مظهراً من مظاهر فعل « المؤثر الخارجى » . وتربط الممانى يكون الجزء الأكبر من عملية التدريب ، والإنسان لا يخرج فى تكوينه عن مجرد تجمع لفعل المؤثرات الخارجية التى تعرض لها ، وهذه المؤثرات إما أن تتسامى به إلى أعلى أو تنزل به إلى أسفل — ولكنها تدربه على كل حال ، وتترك فيه آثاراً تتجدد وتزايد باستمرار فى كل لحظة من لحظات حياته .

الشاب : وعلى ذلك فإذا أوقعته ظروف الحياة فى وسط سيء فليس ثمة شئ يمكن أن يعمل لإنقاذه ، إذ بمقتضى الفكرة التى تقول بها سوف يتجه به تدريبه إلى أسفل سافلين .

الشيخ : لا يمكن إنقاذه ؟ لا يمكن إنقاذه هذه « الحباء » ؟ هذا خطأ ياسيدى . إن الجزء الأكبر من نجاحه فى الحياة متوقف على هذا التشابه بينه وبين الحباء ، متوقف على هذه القابلية للتلون بلون البيئة التى يوجد فيها . كل ما عليه هو أن يغير بيئته — يغير ارتباطاته ، ولكن الدافع الموجه نحو هذا التغيير لا بد أن يأتيه من الخارج — فهو لا يملك أن يخلق دوافعه من تلقاء نفسه .

فأحياناً يمكن لشئ طارىء ، عارض ، تافه أن يمدد بالدافع الموجه الذى يضعه فى بداية طريق جديد ليحاول تحقيق مثل أعلى جديد فثلاً قد ينجح تعليق عابر من فتاة — « يقال لى بأنك جبان » — فى رى البذرة التى سوف تنبت ثم تورق ثم تثمر وتنمو وتنتهى بثمار تدعو للدهشة ، فى ميادين الحرب . وتاريخ الإنسان مليء بأمثال هذه الحوادث . فحين كسرت ساق الجندى مستهتر عرييد وجد نفسه يتجه بكليته نحو مؤثرات دنيئة

أمدته بمثل عليا جديدة . من هذا الحادث خرج نظام الجيزويت الذى
نجح في زعزعة عمروش ، وتغيير سياسات والقيام بأعمال أخرى هائلة
خلال القرنين الماضيين — ولسوف يستمر .

والقراءة المعارضة لكتاب أو لفقرة في جريدة يمكن أن تكون
تغييراً تاماً لطريقة حياته .

الشاب : هل تقصد من هذا إلى التلميح لخطة بالذات ؟
الشيخ : ليست هذه الخطة جديدة — بل هى قديمة ، قديمة قدم الإنسان
على الأرض .

الشاب : وما هى ؟
الشيخ : هى مجرد وضع نخاخ للناس ، نخاخ تحوى طعماً من « الدوافع
الموجهة نحو مثل عليا طيبة » . هذا هو ما يعمل موزعو الرسائل
الدينية ويعمله الوعاظ والبشرون ، وهو أيضاً ما يجب على الحكومات
أن تعمله .

الشاب : ألا تعمل الحكومات ذلك ؟
الشيخ : أحياناً تعمل وأحياناً لا تعمل . فالحكومات تعزل المريض بالمجدرى
عن الأصحاء ، ولكن في معالجتها للجرائم تضع الصحيح في قلب
منطقة الوباء مع المرضى . بمعنى أن الحكومات تضع المبتدئ مع المجرم
الذى تعمّد الإجرام . ولعل مثل هذا الإجراء كان يصبح مقبولا لو أن
الإنسان كان بطبيعته ميالاً للخير ، ولكن الواقع غير ذلك . فتكون
النتيجة أن تجعل الارتباطات الجديدة من المبتدئ شخصاً أسوأ بكثير
مما كان حين دخل السجن — وهذا في حد ذاته فرض لمقوبات بالغة
القسوة على أناس أبرياء نسبياً .

والحكومات بوجه عام تقسو على الأبرياء أحياناً ، فالحكومة تعدم
القاتل شقاً — وهذه العقوبة بسيطة ؛ ولكنها على بساطتها — بالنسبة
للجريمة — تكاد تقتل أهله حزناً عليه — وهذه عقوبة هائلة توقع
على الأبرياء .

والحكومة تسجن من يمتدى على زوجته بالضرب ، فيجد في
السجن طاماً ومأوى لا بأس بهما ، بينما زوجته وأطفاله الأبرياء تتركهم
الحكومة ليموتوا جوعاً خارج السجن .

الشاب : هل تؤمن بالنظرية القائلة بأن الإنسان يتمتع بإدراك فطري للخير والشر ؟
الشيخ : آدم نفسه لم يكن له هذا الإدراك .

الشاب : ولكن هل حصل الإنسان هذه القدرة من بعده ؟
الشيخ : لا ، لا أعتقد أن الإنسان يتمتع بقدرة فطرية من أى نوع . هو
يأتى بكل أفكاره وكل إحساساته من الخارج . أنا أكرر هذه العبارة
على أمل أن أطبعها في نفسك إلى الحد الكافي للإثارة اهتمامك فتلاحظ
وتختبر لنفسك وترى إذا كانت سليمة أم زائفة .

الشاب : من أين لك إذن هذه الأفكار الفاسدة ؟
الشيخ : من الخارج . أنا لا اخترعها ، هي تتجمع من مئات المصادر التي
لا أذكرها والجزء الأكبر منها يتجمع بشكل لا شعورى .

الشاب : ألا تؤمن بأن الله يمكنه أن يخلق إنساناً شريفاً بسليقته ؟
الشيخ : بلى أومن بذلك ، ولكنى في نفس الوقت أعلم أنه لم يخلق إنساناً
واحداً بهذه الصفة .

الشاب : لقد لاحظت من هو أعقل منك حقيقة سجلها في هذه العبارة
« الإنسان الشريف » هو اسمى ما خلق الله .

الشيخ : هو لم يسجل حقيقة وإنما سجل زيفاً ، الجلة جميلة ، حسنة
الوقع — ولكنها ليست صحيحة ، فإله يخلق الإنسان وفيه « احتمالات »
لأن يكون شريفاً أو غير شريف . ثم يأتي ترابط المعاني ويفتدى
الاحتمالات — أما في هذا الجانب أو في ذلك ، والنتيجة تبعاً لذلك
إما رجل شريف ، أو رجل غير شريف .

الشاب : والرجل الشريف لا يحق له أن . . .

الشيخ : يفخر ؟ لا . إلى متى أجدني مضطراً لتكرار ذلك ؟ هو لم يخلق
صفة الشرف التي يتصف بها .

الشاب : والآن أسألك أية فائدة ترجى من تدريب الناس على أن يحبوا في
ظلال الفضيلة ؟ ماذا يعود عليهم من وراء ذلك ؟

الشيخ : الرجل الفاضل يجنى الشيء الكثير من وراء فضيلته — وهذا
هو المهم . . الكسب لنفسه أولاً . فهو ليس مصدراً للخطر ولا مبعثاً
للفساد بالنسبة لجيرانه ، أى أن فضيلته في هذه الحالة تنفع جيرانه — وهذا
هو الشيء المهم في نظرهم .

فالفضيلة تجعل الحياة سهلة بشكل نسبي لكل من الطرفين ،
وإهمالها كنوع من التدريب يجعل الحياة سلسلة من الأخطار والمخاوف
لكل منهما .

الشاب : سبق لك أن قلت بأن التدريب هو كل شيء بل هو الإنسان
نفسه — لأن الإنسان يتشكل بشكل تدريبي .

الشيخ : ذكرتُ التدريب بالإضافة إلى شيء آخر ؛ ولكن لنضع هذا
الشيء الآخر جانباً الآن ، ماذا كنت تريد أن تقول ؟

الشاب : عندنا خادمة عجوز التحقت بخدمتنا منذ اثنتي وعشرين سنة . لم

يكن في تصرفاتها شيء يدعو للمؤاخذة ، ولكنها الآن أصبحت كثيرة النسيان . كلنا نحبها ونعطف عليها ، وكلنا نعترف بأنها لا تملك منعا لعاهة جلبها عليها كبر سنها ، وما من أحد بين أفراد الأسرة يؤنبها على نسيانها ، وإن كنت أنا أفعل ذلك في بعض الأحيان ، إذ لا أقدر على التظاهر بضبط النفس . لعلك تسألني هل أحاول ضبط نفسي ؟ نعم أحاول . ولكن حين كنت على وشك إرتداء ملابسى صباح اليوم ، لم أجد الملابس النظيفة قد أعدت في انتظارى . أثارنى ذلك — وما أسهل وأسرع استشارتى في الصباح الباكر ! قرعت الجرس ، وبدأت في الحال أحذر نفسى من أن أظهر أية علامة من علامات الغضب ، وعزمت على أن أكون حريصاً ، وأن أتحدث برفق . أعددت عدتى للموقف بكل عناية ، بل ذهبت إلى أبعد من ذلك فصفت في ذهنى العبادة التى سوف أوجهها إليها : « لقد نسيت الملابس النظيفة يا جين » . وبمجرد دخولها من الباب فتحت فى لأقول تلك العبارة ، ولكن قبضاً من الغضب استولى على غمضى قبل أن أقدر على كتمانها ، فوجدتنى أوثنها بقسوة قائلاً : « لقد نسيت الملابس مرة أخرى ! » .

وأنت تقول بأن الإنسان يفعل دائماً الشيء الذى « يرضى السيد المسيطر على كيانه من الداخل » فمن أين إذن أتت الرغبة فى إعداد ما أعددت من ألفاظ أقصد بها تجنب الخادمة ألم التأنيب ؟ وهل أملى على هذه الرغبة نفس « السيد الذى لا يهمه إلا أمر نفسه أولاً وقبل كل شيء » . الشيخ : بدون شك . ليس هناك مصدر آخر لأى دافع كائن ما كان . فأنت اتخذت المدة لإنقاذ الفتاة من التأنيب ، ولكن هذا يأتى فى المرتبة الثانية ، أما فى المرتبة الأولى فتأتى رغبتك فى إنقاذ نفسك عن طريق إرضاء ذلك السيد .

الشاب : ماذا تعنى ؟

الشيخ : هل حدث أن رجلك أحد من أعضاء الأسرة في أن تحتفظ بهدوتك .
فلا تلقى بالسباب جزافاً فوق رأس الخادمة المسكينة ؟

الشاب : نعم . رجعتنى أمى .

الشيخ : هل تحبها ؟

الشاب : نعم أعبدها .

الشيخ : وهل تعمل كل ما تقدر عليه لإرضائها ؟

الشاب : إن من دواعى سرورى أن أعمل أى شىء لإرضائها ؟

الشيخ : آه ! ! ! إذن فأنت تعمل ما تعمل من أجل « الأجر » ،

من أجل « المكسب » ، . . . « الربح » . والآن خبرنى أى ربح

تنتظره ، بل أى ربح يأتيك فعلا من هذه الصفقة ؟

الشاب : يأتينى أنا شخصياً ؟ لا شىء ، لإرضاؤها فيه الكفاية .

الشيخ : من هذا يتضح أن غرضك الأول لم يكن تجنب الفتاة ألم التأنيب ،

بل لإرضاء والدتك . كما يتضح أن إرضاء والدتك يسبب لك ارتياحاً

ولذة . أليس هذا هو الربح الذى يعود عليك من صفقتك . أليس هو

الربح الحقيقى . . . « الربح الأول » .

الشاب : حسناً استمر .

الشيخ : فى كل معاملاتك يقيم « السيد الداخلى » من نفسه رقيباً يضمن

حصولك أنت على « الربح الأول » وإلا ألغيت الصفقة .

الشاب : ولكن إذا كنت أنا مهتماً وراغباً فى تحصيل ربحى الخاص من

الصفقة فلماذا إذن سمحت لنفسى بفقده حين فقدت هدوتى وصحت فى

وجه الخادمة ؟

الشيخ : لكي تحصل على ربح آخر فاقه في قيمته .

الشاب : وأين كان ذلك !

الشيخ : مختبئاً خلف مزاجيك الفطري يتحين الفرص للظهور ، غلبت عليك طبيعتك الموروثة ... غلبت بشكل مفاجيء ، وقفزت إلى المقدمة ، وفي هذه اللحظة كان أثرها أقوى بكثير من أثر أمك . عطلت طبيعتك تعاليم أمك ، وفي هذا المثال الذي نحن بصدد كنت تتحرق شوقاً إلى الثأيب ، فأثبت وسرك ما فعلت ، أليس كذلك ؟

الشاب : بلى . لمدة قصيرة جداً ربيع ثانية .

الشيخ : وهذا يثبت من جديد صحة ما ذكرت لك . فالشيء الذي يمنحك أكبر قدر من الارتياح أو اللذة في أى لحظة (أو جزء من لحظة) يجبرك على فعله قبل غيره ، وإن عليك دائماً أن ترضى كل ما يجد من نزوات تفرضها عليك القوة التي تسيرك من الداخل .

الشاب : ولكن حين اغرورقت عينا الخادم العجوز بالدموع خيّل لي أنى لا أكون مغالياً لو قطعت يدي ندماً على ما فعلت .

الشيخ : هذا حق ، لقد أسأت إلى نفسك . ألا ترى معي أنك سببت الألم لنفسك أولاً . فليس هنالك شيء يمكن أن يحتل المكان الأول من الأهمية بالنسبة للإنسان سوى النتائج التي يترتب عليها كسبه أو خسارته — وكل ما خلا ذلك ذو أهمية ثانوية .

لقد غضب « سيدك » — غضب ضميرك — بالرغم من أنك أعطته حين شتمت ، طلب ندماً عاجلاً ، فأطمت من جديد ، كان عليك أن تطيع ، فليس ثمة فرار من أوامره ونواهيه . هو سيد قاس ولكنه

مقلب ، يغير نواياه فى جزء من الثانية . ولا بد أن تكون على استعداد للطاعة وسوف تطيعه دائماً فإن فرض عليك الندم حتى يرضى وجدت نفسك تقدم الندم طوعاً كما طلبه . يجب أن يدلل ، يرفقه ، يسترضى . استخدم ما شئت من الفاظ .

الشاب : والتدريب ؟ ما فائدة التدريب إذن ؟ ألم تحاول أى أن تدربنى بشكل يكفل عدم صياحى فى وجه الخادم فيما بعد ؟
الشيخ : هل نجحت يوماً فى كتابان شتاأم كنت تود أن تقذف بها أحداً ؟
الشاب : نعم ، مراراً .

الشيخ : مرات أكثر هذا العام منها فى العام الماضى ؟
الشاب : نعم أكثر بكثير .

الشيخ : ولعلها فى العام الماضى أكثر منها فى سابقه ؟
الشاب : نعم .

الشيخ : إذن فهناك تقدم كبير فى خلال السنتين ؟
الشاب : نعم بدون شك .

الشيخ : إذن فقد أجبت بنفسك عن سؤالك ، هل رأيت أن للتدريب فائدة ، ثابر . . . وثابر بأمانة . . . فأنت تتقدم .

الشاب : وهل أبلغ من الإصلاح حد السكال ؟

الشيخ : نعم ، سوف تصل إلى أقصى حد يقسع له استعدادك .

الشاب : استعدادى ؟ ماذا تعنى ؟

الشيخ : تذكر أنك قلت بأنى سبق أن قررت أن التدريب هو كل شئ ، وتذكر أنى أصلحت من عبارتك فقلت « بل التدريب مضافاً إليه شئ »
آخر « هذا الشئ الآخر هو « المزاج » — أى الاستعداد الذى

ولد معك ، لا يمكنك اقتلاع استعدادك . . . لا يمكنك استبعاد ذرة منه ، كل ما يمكنك هو أن تكبته وتستبقه هادئاً إلى حين ، هل أنت عصبي الزاج .

الشاب : نعم :

الشيخ : لن يتيسر لك الخلاص من هذا الزاج ، ولكن بمراقبته يمكنك أن تكبجه بدون انقطاع تقريباً . وجود هذا الزاج يرسم لك الحد الذي يتسع له استعدادك . فإصلاحك لن يصل تماماً إلى حد الكمال ، لأن مزاجك سوف يغلب عليك من وقت لآخر . ولكنك سوف تقترب من الكمال يقدر المستطاع — وما أنت ذا بالفعل تقدمت تقدماً ذا بال ، ويمكنك أن تتقدم أكثر من ذلك . إن للتدريب فائدة كبيرة ، وإن يمضي وقت طويل حتى تصل إلى مرحلة جديدة من مراحل النضوج وعندها يصبح تقدمك أسهل لأنه سوف يتبع قاعدة أسهل .

الشاب : وضع . . . أشرح .

الشيخ : أنت تمتنع عن السب الآن لأنك ترضى نفسك عن طريق إرضاء أمك . ولن يطول تدريبك حتى ترى أن مجرد انتصارك على مزاجك يرضى كبرياءك ، ويزجى إليك نوعاً من الارتياح واللذة أمتع بكثير مما يبعثه فيك رضا أمك عنك . في ذلك الوقت سوف تصل إلى نفسك بطريق مباشر بدلاً من أن تصل إليها خلال الطريق الملتوى الذي يدخل والدتك في الاعتبار . وهذا يبسط الموضوع بدون شك كما أنه يقوى الدافع .

الشاب : يا إلهي ! ولكنني سوف لا أصل إلى مرحلة أعطف فيها على الخادمة من أجل نفسها أولاً ، وليس من أجل نفسي ؟

الشيخ : ولم لا ؟ . . . في الآخرة على ما أعتقد .
الشاب : (بعد لحظة تفكير) المزاج ؟ . . . الآن آمنت بأهميته . من المؤكد أنه عامل ذو أثر فعال . فأنى مثلاً أميل للتروى وليست عصبية المزاج ، حين ارتديت ملابسى ذهبت إلى حجرتها ولكنها لم تكن هناك . ناديتها فأجابتنى من الحمام ، سمعت صوت الماء وهو ينساب ، فسألت ما الموضوع ، فأجابتنى بمنتهى الهدوء إن « جين » نسيت إعداد الحمام لها وإنها لذلك تتولى إعدادة بنفسها ، أظهرت استعدادى لدق الجرس إن أرادت ، ولكنها قالت : « لا . أرجوك ألا تفعل ذلك فسوف يؤلمها أن تواجه بحادث جديد من حوادث النسيان عندها ، وسوف تكون المواجهة بمثابة التوبيخ ، وهى لم تفعل ما تستحق من أجله كل هذا — وهل نؤاخذها على خطأ جلبته عليها ذاكرتها ؟ » والآب أتساءل هل لأمى « سيد داخلى » يسيطر على كيانها من الداخل ، وأين كان حينئذ ؟

الشيخ : كان فى مكانه يبحث عن أمنه ، وسلامته ، ولذته ، ورضاه ، فلو أن الفتاة تأملت لسبب ذلك الألم لأمك ، ولو كان الأمر غير ذلك لاستدعيت الفتاة لتلقى أقذع اللعنات والشتائم ، أعرف من النساء من كن ينعمن باللذة رقم « ١ » لو أنهن استدعين « جين » . ونساء هذا شأنهن ما كن ليترددن فى دق الجرس مطيعات بذلك قانون تكوينهن وقانون تدريبن — وهذان القانونان يطيعان بدورهما « السيد الداخلى » لكل واحدة منهن .

ومن المحتمل جداً أن جزءاً من هدوء والدتك أتى عن طريق التدريب — التدريب الطيب طبعاً — الذى يجعل وظيفة العليا ما يأتى :

« كل مرة ينال فيها الإنسان نوعاً من الارتياح نتيجة لعمله يكون هذا العمل قد حقق فائدة ما لغيره من الناس » .
الشاب : لو فرضنا أنك تقوى أن تلخص في نصيحة واحدة خطتك لتحسين حال الإنسانية بوجه عام فاذا يكون نص هذه النصيحة ؟

نصيحة

الشيخ : « احرص على أن تهذب مثلك العليا بحيث تتسامى بها شيئاً فشيئاً إلى ذروة ترى فيها لذلك القصوى في سلوك يتحتم أن يزجى الخير إلى جارك وإلى مجتمعك في نفس الوقت الذي يرضى فيه نفسك أولاً » .

الشاب : هل هذه عقيدة جديدة ؟

الشيخ : كلا .

الشاب : هل علمها أحد من قبل ؟

الشيخ : لمدة عشرة آلاف سنة .

الشاب : من علمها ؟

الشيخ : كل الأديان العظيمة — كل الشرائع المقدسة .

الشاب : إذن فليس هناك شيء جديد في الموضوع ؟

الشيخ : لا . بل هناك . وهو أن هذه الحقائق ذكرت هذه المرة بصراحة ولم يفعل أحد ذلك من قبل .

الشاب : ماذا تعنى ؟

الشيخ : أما وضعتك أنت في المكان الأول ، ووضعت جارك ومجتمعك

فيما بعد ذلك ؟

الشاب : نعم . هذا فرق في الواقع .

الشيخ : هو الفرق بين الكلام المستقيم والكلام الملتوى ، الفرق بين الصراحة والإبهام .

الشاب : اشرح

الشيخ : الشرائع الأخرى تقدم لك مائة رشوة حتى تكون خبيراً . فهي تسلم بأن السيد الداخلي الذى يسيطر على كياناتك يجب أن يسترضى أولاً . كما تسلم بأنك لا تعمل شيئاً إلا من أجله . ولكنك لا تلبث أن تغير موقفها تماماً فتطلب منك أن تعمل « الخير من أجل الآخرين » قبل أن تعمل من أجل نفسك ، وأن تؤدي ما عليك من واجبات « من أجل الواجب ليس إلا » وأن تقوم بأعمال تنطوى على « التضحية بالنفس » ومن ذلك ترى أن البداية واحدة في جميع الحالات — اعتراف بالسلوك المطلق المتعسف الذى يستقر بين جنبى كل آدمي ، والذي ننحني أمامه خُشوعاً نسترضيه ونسترجه ، ولكن المذاهب الأخرى تهرب ، وتلسب ، وتعيد عن موقفها الأول . وبطريقة تموزها الصراحة ويموزها الثبات ، بطريقة غير منطقية ، تأخذ في الظهور بمظاهر ليست من حقيقتها في شيء ، فتوجه دعوتها نحو استثارة الدوافع الثانوية للإنسان ، بل ونحو استثارة دوافع لا وجود لها بالرة — فبذلك تفرض على هذه الدوافع أهمية ليست لها . بينما في نصيحتي التي ذكرت لك منذ لحظات تجدني مقبياً على رأيي الأول بشكل منطقي ثابت ، فأنا أضع مطالب « السيد الداخلي » في المكان الأول وأبقى عليها حيث هي .

الشاب : إذا سلمنا جدلاً بأن تعاليمك والتعاليم الأخرى تتجه نحو هدف واحد وتحقق هذا الهدف ، تحقق « الحياة الطيبة » فهل لتعاليمك ميزة تفضل بها غيرها ؟

الشيخ : نعم ، ميزة واحدة ميزة كبيرة ، وهي أن تعالجي ليس بها مُعَمَّيات ولا مغالطات . وحين يحيا الإنسان حياة طيبة كريمة وهو مؤمن بها ، فلن تخدعه أكاذيب تحاول تفسير الدافع الرئيسي الذي يوجه سلوكه — بينما في حالة التعاليم الأخرى يصادف مثل هذه الأكاذيب .

الشاب : وهل هي ميزة ؟ أن يحيا حياة طيبة لسبب حقير . في الحالات الأخرى يحيا الإنسان حياة طيبة وهو مقتنع فيما بينه وبين نفسه أنه يحياها لسبب طيب . أليست هذه ميزة للمقائد القديمة ؟

الشيخ : ربما . وكذلك يمكنه أن يستمتع بنفس الميزة (ميزة خداع الذات) حين يظن بينه وبين نفسه بأنه دوق ، ويحيا حياة دوق ، ويظهر بكل ما يقتضيه مظهر الدوقية من أهبة — بينما الحقيقة هي أنه ليس دوقاً بالمرّة ؛ ويمكنه اكتشاف ذلك لو أنه رجع إلى سجلات الانقلاب في الدولة .

الشاب : ولكنّه على كل حال مجبر على القيام بدور دوق ، فهو يخرج من ماله أقصى مبلغ يمكن أن يخصص للصدقات ، ومثل هذا العمل يفيد المجتمع .

الشيخ : كان يمكنه أن يفعل ذلك بدون لقب الدوقية .

الشاب : أحقاً كان يمكنه ؟

الشيخ : ألا ترى إلى أين أوصلتك المناقشة ؟

الشاب : إلى أين ؟

الشيخ : إلى حيث تقف موقف التعاليم الأخرى ، إلى حيث تعتقد بأن من كرم الأخلاق أن ندع دوقاً جاهلاً يوزع صدقات لا يقصد من وراءها إلا مجرد الظهور حتى يرضى بذلك كبرياءه (وهذا ولا شك دافع حقير)

ومع ذلك لا ننهبه إلى حقيقة دوافع الإحسان عنده خشية أن يففل خزائنه وينقطع عن عمل الخير لو أنه عرف المصدر الفعلي لزعات الخير . الشاب : ولكن أليس من الأوفى تركه جاهلاً كنه هذه النزعات طالما هو يظن أنه يعمل للخير من أجل الآخرين ؟

الشيخ : ربما . وهذا هو موقف التعاليم الأخرى ، فهي تدخل الرياء في نطاق الأخلاق الطيبة ، إذا كنا نكسب من وراء هذا الرياء عملاً طيباً وسلوكاً مرضياً .

الشاب : أعتقد أن تعاليمك التي تقول بأن الإنسان يفعل الخير لإرضاء لنفسه أولاً بدلاً من أن يفعل الخير من أجل الخير مثل هذه التعاليم لو اتبناها جميع الناس لانقطعوا عن فعل الخير :

الشيخ : هل أدبت صدقة في هذه الأيام الأخيرة ؟

الشاب : نعم أديتها في هذا الصباح .

الشيخ : أرجو أن تذكر التفاصيل .

الشاب : احترق كوخ المرأة الزنجية المجوز التي كانت مربية لى في طفولتى ، والتي أنقذت حياتى مرة معرضة حياتها للخطر فجاءتنا هذا الصباح تطلب معونة مالية تمكنها من بناء كوخ آخر .

الشيخ : وهل أعنتها بالمال ؟

الشاب : طبعاً .

الشيخ : هل سرك أن كان المال في حوزتك ؟

الشاب : المال ؟ لم يكن لدى المبلغ الكافى فبعت حصانى .

الشيخ : هل سرك أن تجد لديك حصاناً بقى بالغرض ؟

الشاب : بالطبع ، لأننى لو لم أملك هذا الحصان لمجرت عن تقديم المساعدة ولاقتنصت والدتى الفرصة لإعانة « سالى » المسكينة .

الشيخ : أو شرك كثيرأ أن وجدت مخرجا من مأزقك ؟

الشاب : فعلا سررت .

الشيخ : إذن

الشاب : انتظر ! أعرف فأمة الأسئلة التى عندك وبإمكانى أن أجيب على كل واحد منها بدون أن تضيع وقتك فى إلقائها . ولسوف أُلخص الموضوع فى نقطة واحدة .

أحسننت إلى المسكينة لأننى أعلم أن عملى سوف يسبب لى لذة وراحة كبيرتين ؛ ولأن سرورها وشكرها المؤثرين سوف يسببان سرورى أنا ؛ ولأن الصورة التى ارتسمت فى ذهنى لهذه المرأة وقد غدت من جديد سعيدة راضية من بعد نكبتها ملأتنى وسوف تملأنى بالسعادة والرضا . ففعلت هذا وعيونى مفتوحة تماما ، أعلم تمام العلم أنى إنما أبحث أولا وقبل كل شئ عن نصيبى من الأرباح . والآن هأنذا قد اعترفت — استمر .

الشيخ : ليس لدى ما أقوله بعد هذا ، فأنت قد وفيت الموضوع حقه . ولكن هل تعتقد بأنه كان من المحتمل دفعك لأن تفعل أكثر مما فعلت لإيقاظ « سالى » من نكبتها — أو لأن تفعل نفس ما فعلت بحماس أكثر — لو أنك توهمت أن عملك لم يكن إلا من أجلها هى ؟

الشاب : لا ! ما من شئ كان يمكنه أن يزيد من قوة ذلك الحافز الذى تملكه والذى لم يترك لى ثمة سبيلا للمقاومة ، فلقد وصل فى عنقه إلى أبعد مدى .

الشيخ : حسنا ، أراك قد بدأت تتشكك ، بدأت ترى مى أن الإنسان

حين يكون الدافع الذى يدعو لعمل ما أقوى من الدافع الذى يدعو لأى عمل آخر فإنه لا شك قائم بالعمل ذى الدافع الأقوى سواء أكان خيراً أم شراً .

فإن كان خيراً فلن تقدر كل الأكاذيب التى يلوذ بها أدعياء الحكمة على إضافة ذرة واحدة إلى قوة الدافع . كما أنها لن تقدر على إضافة ذرة واحدة إلى الشعور بالارتياح الذى يجنيه من عمله .

الشاب : وإذن فأنت تعتقد أن الرغبة فى فعل الخير كما نعرفها فى نفوس الأدميين لن يقللها القضاء على الوهم القائل بأنهم إنما يقومون بالأعمال الطيبة من أجل الآخرين وليس من أجل أنفسهم .

الشيخ : هذا هو ما أؤمن به كل الإيمان .

الشاب : ألا يبدو لك أن هذه التعاليم قد تقلل من كرامة العمل الطيب ؟
الشيخ : لو كان للزيف كرامة لساقت لك بما تقول . ولكن تعاليمى تستبعد كل ما هو زائف .

الشاب : وما ذا بقى للأخلاق ليعمله ؟

الشيخ : أن يعلم بدون تحفظ العقائد التى يقتصر عمله الآن على تقديعها بإحدى يديه واستردادها باليد الأخرى . لعمل الخير من أجل نفسك أولاً ، وليسعدك أن تعلم أن جارك سوف يشاركك فى النتائج الطيبة لعملك .

الشاب : أرجو أن تعيد نص النصيحة التى ذكرتها من قبل .

الشيخ : « احرص على أن تهذب مثلك العليا بحيث تتسامى بها شيئاً فشيئاً إلى ذروة ترى فيها لذتك القصوى فى سلوك يتحتم أن يزجى الخير إلى جارك وإلى مجتمعك فى الوقت الذى يرضى فيه نفسك أولاً » .

الشاب : هل تعتقد أن كل عمل من أعمال الإنسان يصدر عن مؤثر خارجي ؟

الشيخ : نعم .

الشاب : لنفرض أنى صممت على أن أسلب شخصاً ماله : فأنت لا ترى
أن مثل هذا التصميم من بنات أفكارى ، ولكنه يأتى من الخارج ...
أليس كذلك ؟

فتلا أراه ممسكا ببعض النقود أو الأوراق المالية وهذا يدفعنى إلى
ارتكاب الجريمة .

الشيخ : هذا المؤثر وحده لا يكفى ، هو ليس إلا آخر مؤثر خارجى يأتى فى
نهاية موكب حافل من المؤثرات الإعدادية التى تمتد خلال مرحلة قد
تبلغ سنووات . فليس بإمكان مؤثر خارجى منفرد أن يجعلك تتصرف
تصرفاً يتنافى مع تدريبك ؛ بل أقصى ما يمكن أن يعمل ، هو أن يهين
أمام عقلك طريقاً جديداً للتفكير ، كما يجعل هذا العقل متفتحاً لاستقبال
مؤثرات جديدة — ومثال هذا قصة « اجناتىوس لويولا » . وفى الوقت
المناسب سوف تتمكن هذه المؤثرات الجديدة من تدريب عقلك إلى حد
يصبح فيه إذعانك للمؤثر النهائى متمشياً مع أخلاقك الجديدة .

والآن سوف أعيد عرض الموضوع بطريقة تكفل وضوح نظريتى
على ما أعتقد .

هنا سبيكتان من الذهب الخالص . وهما تمثلان شخصيتين تم
تهذيبهما إلى أقصى حد ممكن من الكمال الخلقى خلال سنوات من
المثابرة على التدريب الصحيح . فعلى فرض أنك أردت أن تكسرهاتين
الشخصيتين القويتين وتفسد ذلك التماسك الذى تشهده فيهما ، فأى
مؤثر تسلطه على هاتين القطعتين من الذهب الخالص ؟

الشاب : يمكنك أن تم الإجابة على هذا السؤال بنفسك استمر .
الشيخ : لنفرض أنى ساطت على إحدى القطعتين تياراً من بخار الماء
خلال ساعات طويلة متوالية فهل ترتب على ذلك نتيجة تستحق الذكر ؟
الشاب : لا .

الشيخ : لماذا ؟

الشاب : لأن تيار البخار لا يمكنه أن ينال من مثل هذه المادة .
الشيخ : البخار « مؤثر خارجي » ، ولكنه لا أثر له لأن الذهب ليس
عنده استعداد للتأثر به — فتبقى القطعة كما هي ، ولكن لنفرض أننا
أضفنا إلى بخار الماء بعضاً من بخار الزئبق وسلطنا هذا التيار الجديد
على قطعة الذهب فهل تحدث في الحال نتيجة ملحوظة ؟
الشاب : لا .

الشيخ : الزئبق في هذه الحالة مؤثر خارجي والذهب (نظرا لطبيعته . . .
نظرا لمزاجه واستعداده) ليس في طاقته أن يعر بهذا المؤثر « بدون
اكتراث » . فالزئبق يثير « اهتمام » الذهب . وإن كنا لا نلاحظ ذلك
في أول الأمر لأن تسليط المؤثر مرة واحدة لا يتسبب عنه ضرر ،
ولكن لنستمر في تسليط التيار ولنفترض أن كل دقيقة تقوم مقام سنة ،
وفي نهاية عشر دقائق أو عشرين دقيقة (تقوم مقام عشر سنين أو
عشرين سنة) نجد السيكة وقد « تشربت » بالزئبق . . . وقد ضاعت
فضائلها وانحلت شخصيتها . وفي النهاية نجد هذه الشخصية على
استعداد لأن تذعن « لإغراء » ما كانت لتعيره أدنى اهتمام منذ عشر أو
عشرين سنة . والآن سوف أضغط هذه السيكة بين أصابعي جاعلا ذلك
بمثابة توجيه إغراء إلى الشخصية المنحلة فهل ترى ماذا كانت النتيجة ؟

الشاب : نعم . تفقت السيكة إلى ذرات أفهم الآن أن المؤثر الفرد لا يؤدي إلى نتيجة ذات بال ، وإنما يفعل ذلك مؤثر يأتي في نهاية عملية انحلال بطيء يسببها تجمع تدريجي لمؤثرات متشابهة متعاقبة . وأرى الآن كيف أن الدافع المفرد الذي يحفزني لاستلاب مال الرجل ليس هو السبب الأساسي لمثل هذا العمل ، بل هو آخر حلقة في سلسلة إعدادية طويلة . ولعلك تتكرم بتوضيح هذا كله بقصة صغيرة .

قصة

الشيخ : يحكى أن أخوين توأمين كانا يعيشان في مقاطعة نيوانجلاند ، وكانا متشابهين كل التشابه من حيث المظهر الشخصى والاستعداد العقلى والكمال الخلقى . كانا من أطيب النماذج بين زملائهما من تلاميذ المدرسة . وفى سن الخامسة عشرة سنحت الفرصة أمام أحدهما ويدعى جورج لى يعمل كبشار مبتدىء فى سفينة صيد ، وأقلمت به السفينة فى المحيط الهادى ، وبقي شقيقه هنرى فى بيت أسرته بالقرية ، وفى سن الثامنة عشرة أصبح جورج بحاراً ذا خبرة وصران ، وغدا هنرى معلماً فى « مدارس الأحد » . وفى سن الثانية والعشرين نجد جورج وقد أدمن على تعاطى الخمر والشجار بفعل الحياة المنحلة التى كان يحياها على ظهر السفينة وفى فنادق البحارة فى الموانئ الأوربية والموانئ الشرقية ، ثم لا نلبث أن نلقاه فى هونج كونج صعلوكاً طريداً لا عمل له ، هذا بينما رقى أخوه هنرى إلى وظيفة (مُشرف) فى مدارس الأحد ، وفى السادسة والعشرين لم يكن جورج إلا أفاقاً متشرداً على حين أصبح هنرى راعياً لكنيسة القرية .

عاد جورج إلى موطنه ونزل ضيقاً على أخيه هنرى ، وفى إحدى
الأمسيات مر بالبيت رجل ومضى فى طريقه إلى أن غاب فى منعطف
قريب ، فالتفت هنرى إلى أخيه وقال بإتسامة ثم عن طيبة : « رغم أن
هذا الرجل لا يقصد إساءة فى بحال من الأحوال إلا أن مشهده يذكرنى
دائماً بفقرى المدقع لأنه يسير محملاً بأكوام المال ويمر من هنا فى كل
ليلة من ليالى حياته » .

كان هذا المؤثر الخارجى كانت هذه الملاحظة العارضة كافية
بالنسبة لجورج ، ولكنها لم تكن وحدها السبب فى جملة يترصد ذلك
الرجل ثم يسلبه ماله ؛ بل كل قيمتها هى أن تمثلت فيها نتيجة عملية
تجمع المؤثرات الماثلة لمدة إحدى عشرة سنة ، ولهذا ترتب عليها ذلك
الحادث الذى مهد له الاختبار الطويل لتلك المؤثرات .

لم يخطر ببال هنرى أن يسلب الرجل — فسيكته تعرضت للبخار
النقى فحسب ، ولكن جورج تعرض لبخار الزئبق .

الفصل الخامس

الآلة من جديد

ملاحظة :

حين تسأل مسز و : كيف يسمح مليونير لنفسه بأن يتبرع بدولار واحد للكلبيات والمتاحف بينما يقاسى أحد بنى الإنسان آلام الجوع والحرمان ، فقد أجابت على سؤالها بنفسها . فشعورها الكريمة نحو الفقراء يدل على أن لها فى دنيا الإحسان معاييرها الخاصة ؛ وعلى ذلك فقد سلمت ضمناً بحق المليونير فى أن تكون له معاييرها الخاصة كذلك . وبما أنها تطالبه بأن يقبل معاييرها ، فهي بعملها هذا إنما تطالب نفسها بقبول معاييرها . والإنسان دائماً ينظر إلى أسفل حين يتولى اختبار معايير الغير ، ويستحيل عليه أن يجد منها ما يحتاج اختبارها للنظر إلى أعلى .

* * *

الشاب : أعتقد حقاً أن الإنسان ليس سوى آلة ؟

الشيخ : نعم .

الشاب : وأن عقله يعمل بشكل أوتوماتيكي غير خاضع لسيطرته — أى

تشكل فيه الأفكار عن غير قصد ؟

الشيخ : نعم . العقل يعمل بنشاط دائم وبدون توقف فى كل لحظة من لحظات اليقظة ، أما اتفق لك أن قضيت ليلىك ساهداً تتقلب ، تأمر

ثم ترجو ثم تستعطف عقلك أن يكف عن العمل وأن يتركك تنام ؟ أنت الذى تعتقد أن عقلك خادمك طوع أمرك ، يفكر فيما تريده أن يفكر فيه ، ويمتنع حين تأمره بالامتناع . إن اختار أن يعمل فليس عمة وسيلة لإيقافه لحظة . وإن أذكى الناس لن يقدر على إمداد عقله بموضوعات لا تشغله بالفعل ؛ فلو أن العقل في حاجة إلى مساعدة الإنسان لانتظر حتى يقدم له الإنسان ما يعمل حين يستيقظ هذا الأخير في الصباح .

الشاب : ولعل العقل ينتظر بالفعل .

الشيخ : لا ، بل يبدأ العقل مباشرة قبل أن يكون الإنسان قد استيقظ إلى الحد الذى يسمح له باقتراح شيء بالذات ، قد يذهب الإنسان لينام وهو يقول « في اللحظة التى أحس فيها سوف أفكر في كذا وكيت » ولكنه سوف يفشل . سوف يكون عقله أسرع منه . فى الوقت الذى يكون فيه قد تدرج من النوم إلى مجرد حالة من الصحو لا يتمتع فيها بأكثر من نصف شعوره ، سوف يجد أن عقله مشغول فعلا في التفكير بموضوع آخر ، ويمكنك أن تجرى التجربة على نفسك .

الشاب : على كل حال لو شاء الإنسان لأجبر عقله على استمرار التفكير في موضوع يملؤه بالفعل .

الشيخ : لن يحدث هذا إذا وجد العقل موضوعا أكثر إرضاء له . وكقاعدة عامة يمكن القول بأنه لن ينصت لخطبة مملة ولا لخطبة رائعة ، لأنه يرفض الإذعان لأية محاولة لدفعه نحو فكرة ما . فالخطبة المملة تبعث فيه السآمة فيفزع إلى دنيا الأحلام يلتمس فيها ما يشغله ، والخطبة الباردة تقذف إليه بأفكار مثيرة تستهويه فيتبعها فينسى الخطيب

وخطيبته . لا يمكنك أن تمنع عقلك من الشرود إن أراد ، فهو السيد
ولست أنت .

بعد بضعة أيام

الشيخ : أما عن الأحلام — ولكن لنؤجل الموضوع مؤقتاً ، والآن
خبرني هل حاولت أن تأمر عقلك بانتظار تعليماتك فلا يتعرض لفكرة ما
من تلقاء نفسه .

الشاب : نعم . أمرته بأن يتأهب لتلقى أوامري حين أستيظف في الصباح .
الشيخ : وهل أطاع ؟

الشاب : لا ، بل بدأ التفكير في شيء من عندياته ، بدون أن ينتظرني ، كما
أني اتبعت اقتراحك فحدث له في المساء موضوعاً ليبدأ التفكير فيه في
الصباح وأمرته أن يبدأ به دون سواه .

الشيخ : وهل أطاعك ؟

الشاب : لا .

الشيخ : كم مرة حاولت إجراء هذه التجربة ؟

الشاب : عشر مرات .

الشيخ : وكم مرة نجحت ؟

الشاب : ولا مرة .

الشيخ : إذن فالسألة كما ذكرت لك : العقل مستقل عن الإنسان ، وليس
للإنسان سيطرة عليه — فهو يعمل ما بداله . يختار مادة تفكيره رغم
أنف صاحبه ؛ ويظل محتفظاً بها رغم أنف صاحبه ؛ أو يلقي بها جانباً
رغم أنف صاحبه أيضاً . أي أن استقلال العقل استقلال تام غير منقوص .

الشاب : استمر . وضع ما تقول .

الشيخ : هل تعرف لعبة الشطرنج ؟

الشاب : تعلمتها منذ أسبوع .

الشيخ : هل ظل عقلك مشغولا باللعبة طوال الليلة الأولى لتعلمك إياها ؟

الشاب : أوه ، لا تذكرني بذلك .

الشيخ : كان في اهتمامه مشغولاً بهما ، ظل يقفز من لعبة إلى أخرى ، رجوته أن يترك اللعب جانبا ويسلمك للنوم . أليس كذلك ؟

الشاب : نعم . ولكنك لم يستمع لى . ظل يلعب بدون توقف ، أجهدي الأرق فنهضت في الصباح شاحباً متثاقلاً .

الشيخ : ألم تعلق بذهنك ذات مرة قطعة من الشعر الهازل لم تقدر على الخلاص منها ؟

الشاب : نعم ، نعم

أنا شفت « إيسو » يَثْبُوس « كيت » ؛

« وكيت » شافَتْنِي شايف « إيسو » ؛

أنا شفت « إيسو » شايف « كيت » ؛

« وكيت » شافَتْنِي الخ .

وهكذا لقد سر عقلى بها إلى حد الجنون حين سمعتها لأول مرة . ظل يرددها طول النهار وطول الليل لمدة أسبوع بالرغم من كل ما غملمته لإيقافه . وبدأ لى أنى ولا شك مشرف على الجنون .

الشيخ : وما رأيك فى الأغنية الشعبية الجديدة ؟

الشاب : آه ! نعم . نعم . « قرّبت أنول الهنا . . . الخ » هذه الأغنية بأنغامها البديعة ظلت تتردد فى عقلى ليل نهار أثناء نومي ويقطى حتى

أحالي الأرق حطاماً ، وما من سبيل لإيقاف التفكير .
الشيخ : أراك تعترف بنشاط العقل « أثناء النوم واليقظة » ومعنى هذا أن
العقل سيد مستقل تمام الاستقلال هو مستقل عنك إلى الحد
الذي يمكنه من إدارة شئونه وتوقيع أغانيه ونسج أحلامه الباهرة
المتشابهة أثناء نومك . ليست به حاجة إلى مساعداتك ، ولا إلى توجيهك
ولا يفيد شيئاً من وراء هذه المساعدة أو هذا التوجيه سواء أ كنت
يقظان أم نائماً ، لقد سبق لك أن تخيلت أن لك القدرة على ابتكار
فكرة جديدة في عقلك واعتقدت بإخلاص أن هذا ممكن .

الشاب : نعم . كان لي مثل هذا الاعتقاد .

الشيخ : ومع ذلك فليس في استطاعتك أن تبتكر مادة تقدمها لعقلك
ينسج منها كيف شاء .

الشاب : لا .

الشيخ : وليس بإمكانك أن تمل عليه خطة السير بمد أن يكون قد ابتكر
مادة الحلم لنفسه .

الشاب : لا . ليس هذا بإمكانى ولا بإمكان أى إنسان آخر — هل تعتقد أن
« عقل اليقظة » و « عقل الأحلام » هما نفس الشيء ؟

الشيخ : هنالك ما يثبت ذلك . فأحياناً تطوف بنا أثناء الصحو أفكار
خيالية جامحة ، أفكار تشبه الأحلام .

الشاب : نعم . ومثال ذلك قصص « ألف ليلة وليلة » أو قصة مستر « ولز »
عن الرجل الذى اخترع سائلا يحيل الإنسان إلى مخلوق غير مرئى . .

الشيخ : وأحياناً نحلم أحلاماً معقولة ، بسيطة ، منطقية غير خيالية .

الشاب : نعم . قد يتفق لى أن أحلم أحلاماً تنطبق عليها هذه الأوصاف ،

أحلاماً تشبه الحياة الواقعية تمام الشبه ، أحلاماً يبدو فيها عدد غير يسير من الأفراد لكل منهم أخلاقه ومميزاته — فأشهد أفراداً من صنع عقلي ولكنهم مع ذلك غرباء على . أرى بينهم الجلف والمهذب ، العاقل والأبله ، القاسى والمترفق ، المشاكس والمسال ، الشيخ والشاب ، الجميلة والدميمة — وكل منهم يتكلم وفقاً « لشخصيته » محتفظاً بطابعه الخاص . وقد يشمل الحلم من مناظر العراك الدامى أو الإهانات اللاذعة ، أو أحاديث الهوى ما ينبض كله بالحياة . . . مأس ومهازل ، أحزان تعتصر قلبك ، وأقوال وأفعال تنير ضحكك ، أى أن المسألة كلها لا تخالف الحياة الواقعية فى كثير أو قليل .

الشخص : هل نفهم من هذا أن عقلك يبتكر موضوع الحلم ، وينسج جزئياته وتفاصيله بدقة ومهارة ثم يتولى عرض تمثيليته البارة — كل هذا بدون مساعدة أو إيجاء من جانبك ؟

الشاب : نعم .

الشيخ : إذن فى هذا ما يثبت قدرته على أن يقوم بنفس العملية فى يقظته بدون أدنى مساعدة أو إيجاء من جانبك — وهذا هو ما اعتقده أنا شخصياً . أى أن « عقل اليقظة » و « عقل الأحلام » هما نفس الشيء ، هما نفس الأداة التى لا تتطلب منك مساعدة بالرة . . . نعم ليس العقل إلا آلة ، آلة مستقلة تمام الاستقلال ، آلة تعمل بشكل لا إرادى « بشكل أوتوماتيكى » .

هل قت بالتجربة الأخرى التى اقترحت عليك إجراءها ؟

الشاب : أى تجربة تقصد ؟

الشيخ التجربة التي تحاول من ورائها معرفة مقدار سيطرتك على عقلك ؛
إن كانت لك ثمة سيطرة عليه .

الشاب : نعم أجريتها فكانت موضوعاً للتسلية لا بأس به . فعلت ما أمرتني
به فوضعت أمام عيني موضوعين أحدهما ممل لا أثر فيه للتسلية ، والآخر
ممتع شيق مليء بالسحر والجاذبية ، وأمرت عقلي أن يقصر اهتمامه على
الموضوع الممل .

الشيخ : وهل أطاعتك ؟

الشاب : لا ، لم يطعني بل شغل نفسه بالموضوع الثاني .

الشيخ : هل نويت نية صادقة أن تجبره على طاعتك ؟

الشاب : نعم فعلت كل ما تتسع له طاقتي .

الشيخ : وماذا كان نص الموضوع الذي رفض عقلك أن يركز فيه انتباهه ؟

الشاب : كان شيئاً من هذا القبيل . إذا فرضنا أن (أ) عليه أن يدفع مبلغ

دولار ونصف دولار إلى (ب) وأن (ب) عليه أن يدفع دولارين وثلاثة أرباع

دولار إلى (ح) وأن (ح) عليه أن يدفع ٣٥ سنتاً إلى (أ) وأن

(أ ، د) عليهما أن يدفعاً معاً إلى (هـ ، ب) مبلغ ٣ من الـ

الـ لا أذكر بقية الموضوع الآن ، ولكنه على كل حال ممل

كل الملالة ، وما كان بوسعي أن أجبر عقلي على التركيز في مثل هذه

السخافات أكثر من نصف دقيقة في كل مرة ، فقد ظل يحاول أن يجد

مهرباً في ثنايا الموضوع الثاني .

الشيخ : وماذا كان ذلك الموضوع الثاني ؟

الشاب : أرجو أن تعفيني من الإجابة على هذا السؤال .

الشيخ : لا . . . بل خبرني ما هو ؟

الشاب : صورة .

الشيخ : صورتك ؟

الشاب : لا ، بل صورتها .

الشيخ : لقد أجريت اختباراً طيباً - هل قت بتجربة أخرى ؟

الشاب : نعم ، أصرت على أن يقصر اهتمامه على ما جاء بإحدى صحف الصباح عن أسرار الخنازير ، وفي نفس الوقت ذكرته بتجربة مرت في منذ ستة عشر عاماً ، فرفض التفكير في الخنازير بينما وجه كل اهتمامه للحادث القديم .

الشيخ : وما تفاصيل ذلك الحادث ؟

الشاب : لطم أحد الأشقياء المسلحين وجهي أمام عشرين شخصاً ، وكل تذكرت هذا الحادث تثور في نفسي نوازع الشر وأحس أن لو تمثل أُمى الآن لقتلته .

الشيخ : كلاهما اختبار طيب ، وهل وضعت اقتراحى الآخر موضع التجربة أو التنفيذ ؟

الشاب : تعنى تلك التجربة المقصود بها إقناعى بأنى إذا تركت عقلى ليتصرف وفق هواه فإنه سوف يجد مادة للتفكير بدون مساعدتى أو تدخل ، وبذلك يقنعنى بأنه آلة « أوتوماتيكية » تديرها المؤثرات الخارجية - آلة وصلت فى استقلالها عنى إلى الحد الذى قد تبلغه لو كانت فى جمجمة رجل آخر ؟ أتقصد هذه التجربة ؟

الشيخ : نعم .

الشاب : أجريتها بينما كنت أخلق ذقنى فى الصباح بعد أن استمتعت طوال الليل بنوم هادى عميق ، وكان عقلى نشطاً - كان مرحاً

طروباً . أسعدته نادرة ظريفة من نوادر طفولتى البعيدة التمت فجأة في ذاكرتى بمجرد أن وقع نظرى على قطة صفراء تتلمس طريقها بمحذر على حافة سور الحديقة كان لونها كافياً لاستعادة صورة قطة الطفولة : رأيتها تسير على السلم الجانبي لنبر القس في الكنيسة ، ثم تنتقل على جهل منها إلى حيث وضعت رقعة كبيرة لرجة من ورق صيد الذباب ، وفي مثل لمح البصر كانت جميع أقدامها قد التصقت بالمصيدة ، رأيتها تقاوم ثم تسقط عاجزة حائقة ، كلما ضاعفت من عنف جهدها ، كلما زادت مرارة الفشل ، ثم قفز إلى ذاكرتى منظر المصلين يرتجفون في لحظة من لحظات السمو الماطفى وقد سالت دموعهم خُشَعاً صامتين ، رأيت هذا كله ولم يلبث مرأى الدموع أن طوَّحَ بذهنى إلى مشهد أبعد وأشدَّ حزناً ، بدت أمامى جزيرة « تيرا دلفويجو » كما كنت أشهدها بمعنى أدارون ، وهناك رأيت عملاقاً عارياً من بين المتوحشين يقذف بابنه الصغير من فوق الصخور عقاباً له على هفوة تافهة ، ثم رأيت الأم المسكينة تجمع أشلاء ابنها المحتضر وتضمه إلى صدرها وتبكي بدون أن تنبس بكلمة واحدة ، ولكن هل أطال عقلى وقفته ليبيكى نكبة تلك الأم العارية السوداء — شقيقتى فى الإنسانية ؟ لا . فى أقل من ثانية كان بعيداً عن ذلك المشهد مشغولاً بذكر تفاصيل حلم يعاودنى بين حين وآخر . فى ذلك الحلم أرى نفسى عارياً كما ولدتنى أمى ، أروح وأغدو . أتقرب وأتهرب وسط جفج حاشد من السيدات والرجال كلهم معنى بهندامه إلى حد الكال — وقد حيرتنى الرغبة فى معرفة الكيفية التى أوصلتنى هناك . وهكذا صورة بعد صورة ، حادث بعد حادث لوحة حية بل كل ما فيها يعرج

بالحياة ، لاثبت لها ولا استقرار ، لا يزال العقل يعمل فيها بين جمع وتشيت بغير حاجة إلى أدنى مساعدة من جانبي .

قد أستغرق ساعتين لو أننى حاولت مجرد ذكر أسماء الأشياء التي حشدها ذهني وصورها في ربع ساعة — هذا بخلاف وصفها لك .
الشيخ : حين يترك العقل حراً فإنه لا يحتاج إلى أية مساعدة من جانب الإنسان ، ولكن هناك طريقة تمكن المرء من الحصول على معونة عقله إن أراد .

الشاب : وما هي هذه الطريقة ؟

الشيخ : حين تتعاقب الخواطر في عقلك سراعاً فإذا بك أمام نواظر ملهم ، فما عليك إلا أن تفتح فكك وتحدث بكل ما يوحى به إليك ، أو تشرع قلمك وتسجل كل ما يمر بك ؛ فكل من هاتين العمليتين سوف يساعدك على إطالة اهتمامك بالموضوع وتركيز ذهنك فيه فيتابع السير راضياً ، في مثل هذه الحالات سوف تجد أن عقلك يأخذ كل شيء على عاتقه ويمدك بالكلمات اللازمة للتعبير .

الشاب : ولكن أأستأنيذ أملي عليه ما يقول ؟

الشيخ : من المؤكد أن هناك حالات لا تجد فيها الوقت لمثل ذلك ، فالألفاظ تتدفق قبل أن تعرف أنت ماذا تنوي أن تكتب أو تقول .

الشاب : هل لديك أمثلة لذلك ؟

الشيخ : خذ على سبيل المثال « النكتة » أو « القفشة » — التعبير في هذه الحالات أسرع من أن يسمح لك بترتيب الألفاظ ، ليس هنا مجال للتفكير ولا للتأمل . وحيثما تصادف بديهة حاضرة تأكد أنها تعمل بشكل « أوتوماتيكي » ولا تحتاج إلى مساعدة . وحيثما تصادف

شخصاً تعوزه سرعة الخاطر تأكد أن البحث والتأمل (مهما أغرق
فيهما) لن يغنياء شيئاً ، وإن حاول التعرف .
الشاب : هل تعتقد حقاً أن ليس باستطاعة إنسان ما أن يبتكر شيئاً . . .
أن يخلق شيئاً ؟

عملية التفكير

الشيخ : نعم أعتقد ذلك فالإنسان يدرك إدراكاً حسيّاً ، وآلته العقلية تقوم
بعملية ربط « أوتوماتيكي » بين الدركات ، وهذا هو كل شيء .
الشاب : وما رأيك في قاطرة بخارية مثلاً ؟

الشيخ : احتاجت لجهود خمسين رجلاً خلال مائة سنة قبل أن يتم اختراعها .
بالطبع كلمة « اختراع » ترادفُها كلمة « اكتشاف » . وأنا أستخدم
الكلمة الأولى بهذا المعنى الأخير ، وهؤلاء « المخترعون » ، اكتشفوا
وطبقوا بالتدرّج مئات من التفاصيل التي تدخل في صنع الآلة الكاملة .
في البداية لاحظ (وات) أن البخار المحترس كانت له القوة الكافية
لرفع غطاء غلاية الشاي . هو لم يخلق الفكرة بل اكتشفها ، ولعل قطنته
سبقتة إلى ملاحظة نفس الشيء مئات المرات من قبل تطورت
غلاية الشاي في ذهنه حتى صارت اسطوانة ، وتطور غطاء الغلاية في
ذهنه حتى صار مكبساً ، كان من أبسط الأمور بعد ذلك أن يجعل
المكبس على صلة بشيء يتحرك وفقاً لحركة — ذراع . . . ثم عجلة . . .
وهكذا خرج إلى حيز الوجود محرك بخاري^(١) .

ثم أتى المكتشفون واحداً بعد آخر ، كل منهم يدخل تحسيناً من

(١) كان مركب ورسر قد اكتشف كل هذه الأشياء قبل ذلك بمائة سنة .

عنده ، كانوا يستخدمون عيونهم لا أكثر — لم يستخدموا قوة الخلق
عندهم لأنهم لا يملكون قوة بهذا الاسم ، والآن بعد مرور مائة سنة
ترى عشرات التعديلات التي أدخلها خمسون أو ستون مكتشفاً مندجحة
كلها في الآلة الرائعة التي تدفع سفينة محيطية كبيرة .

الشاب : وما رأيك في مسرحية من مسرحيات شكسبير ؟
الشيخ : نفس العملية ونفس التطور ، فأقدم أنواع التمثيل هو ما كان يقوم
به المتوحشون في رقصاتهم الحربية من استعادة ما صادفوه في حياتهم
اليومية من حوادث — تقدمت المدنية قليلاً فانتجت حوادث أكثر
واتصالات أوسع استعارها الممثل والقصاص ، وهكذا نما القصص
التمثيلي شيئاً فشيئاً وتدرج في طريق الاكتمال ، فالسرحية إذن مصنوعة
وليست « مخلوقة » . صيغت من حقائق الحياة ليس إلا . كان لابد من
مرور قرون وقرون قبل أن نصل إلى التمثيلات اليونانية ، وكان كل
عصر يستعير من المصور التي سبقته ويمر المصور التي تلتها .
فالإنسان يمكن تلخيصه في كلمتين « إدراك » و « ترابط » .
ولا يخرج الأمر عن إحدى هاتين العمليتين ، ولا نفالي إذا قلنا إن
عقل الفأر يعمل بنفس الطريقة .

الشاب : وكيف ذلك ؟

الشيخ : الفأر يدرك رائحة يستنتج منها أن قطعة الجبن ليست ببعيدة عنه
فيبحث عنها فيجدها ، والفيلسفي يدرك شيئاً هنا وشيئاً هناك ، ويضيف
هذه الاكتشافات الجديدة إلى اكتشافات عشرات الفلاسفة أسلافه ،
ويخرج من هذه الإضافة يخرج من هذا الربط باستنتاج وجود
كوكب غير مرئي فيبحث عنه ويجده ، والفأر يجد نفسه فجأة داخل

مصيدة ، فيحاول الخروج بعد لآى ، فيستنتج من تجربته أن الجبن فى المصايد لاقيمة له وينقطع عن التعرض للمصايد بعد ذلك .

الفلسكى معتد بالنتيجة التى وصل إليها ، والفار معتد بالنتيجة التى بلغها . ومع ذلك فكلاهما آلة وكلاهما أدى عملا آليا بحتا . لم يبتكرا ، لم يستجدنا ، لم يخلقا شيئا ، وليس لهما أن يفخرا بشيء — وإنما الفضل كله راجع إلى خالقهما ، ليس لهما الحق فى ألقاب الشرف أو المدائح أو الأضرحة أو الذكري ، فأحدهما آلة معقدة فى تكوينها معقدة فى طريقة عملها ، والآخر آلة بسيطة ذات قدرات محدودة ، ولكنهما متشابهان من حيث القانون الذى صنعا بمقتضاه ، والوظائف التى وجدا من أجلها ، والعمليات التى يقومان بها . ولا يتبع هذا أو ذاك غير طريقة واحدة فى عمله . . . وهى العمل بشكل « أوتوماتيكى » . وليس لأحدهما الحق فى الإدعاء بأن له من القدر الشخصى أو الاعتبار الذاتى ما يرفعه فوق الآخر .

الشاب : أينتهى به كفاحه من أجل تأمين قدره الشخصى إلى أن يوضع على قدم المساواة مع الفار ؟

الشيخ : تقصد شقيقه الفار . نعم هذا ما يبدو لى . ليس لأحدهما الحق فى التمتع بتقدير شخصى من أجل الأعمال التى يقوم بها ، ومن ثم فليس لأحدهما الحق فى أن يفخر (ولو بينه وبين نفسه) بتفوقه على أخيه .

الشاب : هل أنت مصر على أن تظل مؤمنا بهذه الترهات ؟ هل تبقى على إيمانك بها رغم الحجيج القاطعة التى تدعمها الحقائق والأمثلة المصححة ؟ الشيخ : ما كنت إلا باحثا متواضعا أجد غلصا فى السعى وراء الحقيقة . الشاب : وماذا بعد ؟

الشيخ : والباحث المتواضع الجاد المخلص لن يتعذر عليه تغيير عقيدته إن صادف من الحجج القاطعة ما يقضى بهذا التغيير .

الشاب : الحمد لله يسرنى أن أسمعك تقول هذا ، لأنى الآن أعلم أن تغيير عقيدتك

الشيخ : انتظر . أسأت فهم مقصدى ، قلت بأنى كنت « أسى وراء الحقيقة » فى الماضى

الشاب : والآن ؟

الشيخ : لم أعد أفعل ذلك الآن . هل نسيت ما أخبرتك به ؟ هل نسيت قولى بأن البحث عن الحقيقة لا يمكن إلا أن يكون مؤقثاً ؟ وأن من الأمور المستحيلة على الإنسان أن يستمر فى البحث إلى ما لا نهاية ، وأن الباحث بمجرد وصوله إلى ما يعتقد اعتقاداً جازماً بأنه الحق فليس ثمة ما يدعوه إلى مواصلة بحثه — بل يقضى البقية الباقية من عمره فى اصطلياد الخرق يحشو بها الفجوات حتى يغدو « زورق النجاة » الذى يلوذ به قادراً على مجابهة المواطنين . وعلى ذلك يظل البرسبتيريان مخلصاً لمذهبه ، والمسلم مخلصاً لدينه ، والروحاني مخلصاً لخرافاته ، والديمقراطى مخلصاً لمبدئه ، والجمهورى مخلصاً لسياسته ، والملى مخلصاً لعقيدته .

يتبع البحث المؤقت تسليم تام بحقيقة من الحقائق . وفى هذه الحالة لو فرضنا أن باحثاً جاداً مخلصاً تدرج به البحث إلى الاعتقاد بأن القمر مصنوع من الجبن لسا أمكن لأى قوة فى العالم أن ترزحه عن موقفه . فهو ليس إلا آلة « أوتوماتيكية » عليها أن تتبع قانون بنائها ولا تحيد عنه :

الشاب : وإذن

الشيخ : حيث إن الإنسان ليس له إلا دافع واحد يحركه وهو دافع استرضاء الذات ، وحيث إنه لا يعدو أن يكون آلة ، وحيث إنه لا يحق له أن يفخر بقيمة شخصية ينسبها لنفسه ولأعماله — إذن فبمجرد وصولي إلى الحقيقة فليس في استطاعتي كأنسان أن أتابع البحث عنها . سوف أفضي البقية الباقية من عمري في رتق وصوغ وترميم ، وتهذيب عقيدتي التي أغرها كل الإغراز ، بينما أحول وجهي في الاتجاه المضاد كلها لاحت في الأفق حجة مقننة أو حقيقة هادمة .

الفصل السادس

الغريرة والتفكير

الشاب : هذا الموضوع شاذ كل الشذوذ ، فالنظريات المختلفة التي قدمتها منذ لحظة حين تحدثت عن الفأر والمصيدة . . الخ — تلك النظريات تخلع عن الإنسان كل ثياب الكرامة ، والمظلة ، والجلال .

الشيخ : الإنسان لا يملك مثل هذه الثياب حتى نخلمها عنه — لعله يدعى ملكيتها ولكنها ليست إلا ثياباً مسروقة ، هو يريد أن ينسب لنفسه فضلاً ليس من حقه بل من حق خالقه .

الشاب : ولكن ليس لك أن تضعه في نفس المستوى مع فأر .
الشيخ : لم أقصد الناحية الأخلاقية طبعاً . ففي ذلك ظلم كبير للفأر . إذ أن الفأر يفوق الإنسان كثيراً في هذه الناحية .

الشاب : أتقصد المزاح ؟

الشيخ : كلا . بل أنا جاد فيما أقول .

الشاب : فإذا تعني إذن ؟

الشيخ : آه ! هذه النقطة تدخل في نطاق « الإحساس الخلقى » ، وهو موضوع كبير . فدعنا ننهي ما نحن بصددده الآن قبل أن نتعرض لهذا الموضوع .

الشاب : حسناً . لقد بدا لي أنك تسلم بوضع الإنسان والفأر في مستوى واحد . فإهو ذلك المستوى ؟ أهو المستوى الفكري ؟

الشيخ : نعم . في « الشكل » وليس في « الدرجة » .

الشاب : وضع .

الشيخ : اعتقد أن عقل الفأر وعقل الإنسان هما نفس الآلة ، ولكن طاقة كل منهما تختلف الأخرى — مثلهما في ذلك مثل الفرق بين عقلك وعقل إديسون ، أو الفرق بين عقل زنجي من أقزام أواسط أفريقيا وعقل هومر ، أو الفرق بين عقلية سكان أستراليا الأصليين وعقلية بسمارك مثلاً .

الشاب : وكيف يتيسر لك تفسير قولك هذا حين تعلم أن الحيوانات الدنيا ليست لها قدرات عقلية سوى الغريزة بينما الإنسان يتمتع بنعمة العقل .

الشيخ : وما هي الغريزة ؟

الشاب : هي مجرد تطبيق آلي غير واع لعادات موروثه .

الشيخ : ولكن كيف نشأت هذه العادة في بادئ الأمر ؟

الشاب : بدأها الحيوان الأول ثم ورثتها ذريته من بعده .

الشيخ : وكيف تسنى للحيوان الأول أن يبدأها ؟

الشاب : لا أدري . ولكنه بالطبع لم يصل إليها عن طريق التفكير .

الشيخ : وما يدريك أنه لم يفكر بالفعل ؟

الشاب : حسناً . أظن أن لي الحق في افتراض أنه لم يفعل ذلك .

الشيخ : أنا لا أسلم لك بهذا الحق . ما هو التفكير ؟

الشاب : أعلم تعريفك للتفكير . هو تجمع آثار المؤثرات الخارجية بشكل آلي « أوتوماتيكي » ثم استخلاص نتيجة منها .

الشيخ : حسناً . سوف أنبئك بتفسيرى للفظلة « الغريزة » — فهي أولاً كلمة لا معنى لها لأنها لا تعدو أن تكون « فكرة متحجرة » ، أى

فكرة تصلبت بفعل المادة ففقدت كل ما لها من حيوية الأفكار ؛
كانت في وقت من الأوقات فكرة حية يقظة ، ثم غدت بالتدرج فكرة
لا شعورية — كأنما هي تسير أثناء نومها .

الشاب : فسر ما تقول .

الشيخ : خذ على سبيل المثال قطيعاً من البقر يرعى الأعشاب في أحد
المراعي . رؤوس الأبقار كلها متجهة في جهة واحدة . هي تفعل ذلك
بحكم الغريزة لا أكثر فوقوفها في هذا الوضع لا يعود عليها بأية فائدة ،
وليس له سبب ظاهر ، ولا تعرف الأبقار نفسها لماذا تنصرف بهذا
الشكل . هي عادة موروثه كانت في بادئ أمرها فكرة مستحدثة ،
أى ملاحظة لحقيقة خارجية تبعها استنتاج قيم استخلص من تلك
الملاحظة ثم دعمته التجربة .

لاحظ الثور البرى القديم إنه بمساعدة الريح يمكنه أن يشم عدوه
والمسافة بينهما ما زالت تسمح له بالفرار ، فاستنتج أن من الأوفى جعل
أنفه في مهب الريح ، وهذه هي العملية التي يسميها الإنسان التفكير .
وأداة التفكير عند الإنسان تعمل بنفس الطريقة التي تعمل بها أداة
التفكير عند الحيوانات الأخرى ، ولكنها أداة أحسن ؛ فلو أن الإنسان
وجد في مكان الثور لذهب إلى حد أبعد ولفكر في مجال أوسع ، سوف
يجعل جزءاً من القطيع يدير وجهه في الاتجاه المضاد وبذلك يحمي
المقدمة والمؤخرة معاً .

الشاب : هل قلت إن لفظة « الغريزة » لا معنى لها ؟

الشيخ : بل أعتقد أنها كلمة عديمة الأصل . أعتقد أنها تربكنا . فهي دائماً
تطلق على عادات ودوافع أتت عن أصول بعيدة أنشأها التفكير .

الشاب : اعط مثالا لما ذكرت .

الشيخ : إليك هذا المثال . عند لبس السروال يبدأ الإنسان دائماً بإدخال نفس الساق التي تعود أن يبدأ بها دون الساق الأخرى . هذا التصرف لا ينطوى على أية فائدة أو أى معنى . فكل الرجال يتصرفون بنفس الشكل ، ولكن ما من رجل فكر فيه عن قصد أو تبعه عن عمد ، وإنما هي عادة منقولة ولا شك ولسوف يستمر انتقالها من جيل لآخر .

الشاب : هل يمكنك أن تثبت أن المادة موجودة بالفعل ؟

الشيخ : إذا كنت شاكياً أقول فى إمكانك إثباته . إذا أخذت شخصاً إلى مخزن ملابس وراقبته يجرب « دسنة » سراويل فسوف ترى صحة كلامي .

الشاب : ولكن مثال البقر ليس :

الشيخ : ليس كافياً لإثبات أن الأداة العقلية عند حيوان أعجم هي نفس الأداة العقلية عند الإنسان ، وأن عملية التفكير عندهما واحدة ؟ إليك أمثلة أخرى . إذا أعطيت مستر إديسون صندوقاً جعلته بجيلة من الخيل ينفث بخاراً بمجرد لمسه فإن إديسون سوف يستنتج وجود زبرك . سوف يبحث عنه ويجمده .

ولنقارن هذا المثال بالقصة التالية . كان لأحد أعمامى حصان عجوز اعتاد أن يدخل فى « شونة » الغلال ذات السور والباب المقفل ليسرق سنابل القمح . وكانت العقوبة تلحقنى باستمرار نظراً لأن عمى كان يظن أنى أهملت وضع الود الخشبى فى مكانه من الباب لإقفاله . أضجرتنى هذه العقوبات المتكررة وجعلتنى أستنتج وجود مذنب ما فى مكان ما . وعلى ذلك أخفيت نفسى وراقبت الباب لم أطل الانتظار حتى رأيت

الحصان يأتي وينزع الودت بأسنانه ويدخل . لم يعلمه أحد ذلك ، فقد راقب واستنتج بنفسه . لم تختلف عملياته العقلية عن تلك التي قام بها إديسون . جمع التفاصيل الصغيرة واستخلص منها نتيجة . وإني لأذكر الآن بأية قسوة ضربته في تلك اللحظة .

الشاب : يبدو من هذه القصة أن المسألة فيها تفكير . ومع ذلك فهو تفكير غير معقد ، توسع في إيضاحك .

الشيخ : لنفرض أن إديسون نزل ضيفاً على شخص من الأشخاص ، ولنفرض أنه عاد إلى نفس المنزل بعد فترة من الزمن فوجده خالياً . في هذه الحالة يستنتج أن مضيفه قد انتقل إلى مسكن آخر . ثم لنفرض أنه بعد فترة أخرى وفي مدينة أخرى رأى الرجل يدخل منزلاً فإنه يستنتج أن هذا هو المسكن الجديد فيتبع صاحبه ليسأل .

والآن إليك تجربة « نورس » (طائر بحري) كما قصها أحد علماء التاريخ الطبيعي . مكان القصة قرية للصيادين على شاطئ البحر في اسكتلنده . كان أهل القرية كثيراً ما يكرمون هذه الطيور . وحدث أن زار النورس الذي نحن بصدد كوخ أحد الصيادين حيث قدّم له الطعام . عاد في اليوم التالي وقُدّم له الطعام من جديد . وفي المرة التالية دخل المنزل وتناول غداءه مع أفراد العائلة — ومنذ ذلك الحين ظل يتردد على المنزل يومياً . ولكن حدث أن انقطع النورس عن زيارته لغيابه في رحلة عاد بعدها فوجد الدار خلت من ساكنيها ؛ كانت الأسرة قد انتقلت إلى قرية تبعد عن الأولى بمقدار ثلاثة أميال . وبعد بضعة أشهر رأى الطائر رب الأسرة سائراً في أحد طرق القرية فتبعه إلى منزله ، بل ودخل المنزل جاعلاً من نفسه ضيفاً يومياً على الأسرة .

وأنت تعلم أن النورس لا يتمتع بمكانة عقلية ممتازة بين سائر الطيور أو الحيوانات . ولكن بطل قصتنا هذه كانت لا تعوزه الذاكرة ولا ملكة الاستنتاج ، وقد شاهدناه يستخدم هاتين الملكتين على الطريقة الإديسونية .

الشاب : ومع ذلك فهو لم يكن مساوياً لإديسون بل ولن يتيسر تدريبه حتى يتساوى مع إديسون .

الشيخ : ربما لم يكن ذلك ممكناً .

الشاب : ولكن تعليق هذا لا قيمة له في الواقع . استمر .

الشيخ : لو أن إديسون صادفته مشكلة فخلصه منها رجل غريب عنه ولو أنه عاد فوقع في نفس الورطة في اليوم التالي فإنه سوف لا يجد صعوبة في تقرير أحكم تصرف يمكن أن يقوم به لو أنه عرف عنوان ذلك الغريب ، وإليك قصة وقعت حوادثها بين طائر ورجل كما قصها أحد علماء التاريخ الطبيعي . رأى أحد الإنجليز طائراً يحوم حول رأس كلبه الرابض على الأرض ، ويصبح أثناء طيرانه صيحات تنم عن ألمه . فذهب صاحبنا إلى حيث يربض كلبه ليرى بنفسه ما يحدث . كان الكلب قابضاً بفمه على طائر صغير ، وكان الفرخ لا يزال سليماً من غير سوء ، فخلصه الرجل ووضعه فوق قمة شجرة صغيرة وأبعد كلبه عنها . وفي ساعة مبكرة من الصباح التالى أتى الطائر صائحاً وحام حول منقذه وهو جالس في شرفة منزله ، وبعد مناورات طويلة اقتنع الرجل بمتابعة طيران تلك الأم المسكيننة إلى نقطة بعيدة في الحديقة — كانت تسبقه بمسافة صغيرة ثم تنظره حتى يلحق بها وهكذا ، بل وكانت تجعل طيراتها فوق المشى المتعرج بدلاً من اختصار الطريق بالطيران عبر مناطق الخضرة

التي لم يشأ الرجل أن يطأها . بلغت المسافة التي قطعها الرجل خلفها أربعمائة ياردة . كان المسىء في هذه الحالة هو نفس الكلب وكان الطائر الصغير في فمه ، وكان عليه أن يتخلى عنه لسيدة مرة أخرى .

فكان الأم فكرت واستنتجت بالشكل الآتي : بما أن الرجل الغريب ساعدها مرة فهو إذن على استعداد لمساعدتها مرة أخرى كانت تعلم أين تجده فبدأت محاولتها بثقة تامة . كانت عملياتها العقلية هي نفس العمليات العقلية عند إديسون لو أنه صادف نفس المشكلة . جمعت معاً نقطة من هنا ونقطة من هناك — وهذا كل ما تنطوي عليه كلمة « التفكير » — وخلصت من هذا الجمع إلى بناء قضايا منطقية قوامها الاستنباط ؛ وما كان باستطاعة إديسون أن يفعل خيراً من ذلك .

الشاب : هل تعتقد أن كثيراً من الحيوانات العجباء يمكنها أن تفكر ؟
الشيخ : نعم . الفيل والقرود والحصان والبيغاء وغيرها وغيرها .
فالفيل الذي سقطت أليفته في حفرة فعمد إلى إلقاء الفضلات والقمامات فيها حتى ارتفع قاعها إلى الحد الكافي لتمكين أليفته من الخروج — هذا الفيل لا شك كانت له القدرة على التفكير ، وأرى أن كل الحيوانات التي يمكنها أن تكتسب المهارات عن طريق التعليم والتدريب أعليها أن تعرف كيف تلاحظ وكيف تضع نقطة من هنا بجانب نقطة من هناك ثم تخرج منها باستنتاج أي أن عليها أن تقوم بعملية التفكير .

والآن خبرني هل في استطاعتك أن تعلم أبله كيف يستعمل الأسلحة وكيف يتقدم أو يتأخر وكيف يقوم بمناورات عسكرية معقدة بمجرد صدور الأمر إليه بذلك .

الشاب : إذا كان أبله كل البله فلا أظن ذلك ميسوراً .

الشيخ : حسناً . طيور « الكنار » يمكنها أن تفعل ذلك . والكلاب والفيلة تتعلم الشيء الكثير من الألعاب الغريبة . لا بد أن تكون لها القدرة على الملاحظة وربط النقاط بعضها ببعض ، فتقول لنفسها « الآن فهمت المسألة . حين أعمل كذا وكذا وفقاً للأمر الصادر إلى سوف أنال المدح والمطف والغذاء وحين أعمل ما يناقض الأمر ... أعاقب » يمكن ياسيدي تعليم البراغيث كل شيء تقريباً من الأشياء التي يقدر أحد أعضاء « الكونجرس »^(١) على القيام بها .

الشاب : على فرض تسليمنا بأن الحيوانات العجاء يمكنها أن تفكر في مستوى منحط فهل يوجد بينها ما يمكنه أن يفكر في مستوى أعلى ؟

هل من بينها ما يتسamy إلى مرتبة تقربه من الإنسان ؟
الشيخ : نعم . فالثلة في تفكيرها وخططها تعادل أى جنس من الأجناس البشرية التي تعيش على الفطرة ، والثلة في مقدرتها على تحصيل المعرفة بل والتخصص في عدة فنون تفوق الكثير من أجناس البشر المنحطة . بل هي تتسamy في صفة أو اثنتين من الصفات العقلية العالية إلى ما فوق مستوى البشر سواء أ كانوا متمدينين أو متوحشين .

الشاب : على رسلك ! أنت بذلك تلغى حدود العقل التي تفصل بين الإنسان والحيوان .

الشيخ : أرجو المندرة . لا يمكن إلغاء ما لا وجود له .

الشاب : آمل ألا تكون جاداً فيما تقول . لا أظنك تقصد إنكار وجود مثل هذه الحدود .

الشيخ : بل بالعكس أنا جاد فيما أقول . فأمثلة الحصان والنورس وأم الطائر

(١) الكونجرس هو مجلس الشيوخ الأمريكي — المترجم .

الصغير والفيل . . . كلها تدل على أن هذه المخلوقات تضع معا الجزئيات البسيطة التي تصادفها في كل مشكلة ثم تستخلص منها نتيجة بنفس الطريقة التي ما كان إديسون ليتبع غيرها لو أنه عرض لنفس المشكلة . كانت الآلة العقلية عندها مشابهة تماماً لآلته العقلية في تكوينها وفي طريقة عملها . أى أن أداة التفكير عند هذه الحيوانات لا تنقص عنها عند إديسون من حيث التفاصيل والتعقيد إلا بقدر ما تنقص ساعات « ووتربرى » عن ساعات « سترااسبورج » ولكن هذا هو الفرق الوحيد بينها أى ليست هناك حدود تفصل بين عقل في جانب وغيره في الجانب الآخر .

الشاب : يبدو ما تقوله صحيحاً . . . صحيحاً إلى حد يدعو لليأس . هذه حقيقة تؤلك بوضوحها . فهي ترفع الحيوان الأعجم إلى . . . إلى الشيخ : دعنا نتخلص من هذا التعبير الكاذب . ولنسمها « المخلوقات التي لم يتم اكتشافها » فبقدر ما تتسع له معرفتنا لا يمكن أن نجزم بوجود حيوان واحد أعجم .

الشاب : على أى أساس بنيت حكمك هذا ؟

الشيخ : على أساس بسيط كل البساطة كلمة « أعجم » توحي فكرة حيوان تعوزه أداة التفكير ، يعوزه الفهم ، تعوزه طريقة التخاطب أو التعبير عما يدور بذهنه . ونحن نعلم أن الدجاجة عندها وسيلة للتخاطب . لا يمكننا أن نفهم كل ما تقوله ولكن في وسعنا أن نتعلم جملة أو جملتين من لغتها . نفهمها حين تقول « لقد وضعت بيضة » ، ونفهمها حين تقول لأفراخها « إلى يا صغاري لقد وجدت دودة » ، ونفهمها حين تصبح محذرة « تعالوا ! تعالوا ! هلموا إلى الاختفاء تحت أجنحة أمكم

فقد أبصرتُ الصقر يقترب » ، ونفهم ما تعنيه الهرة حين تستلقي وتغتم في حنو ورقة ثم ترفع صوتها في نداء رفيق « هلموا يا صفاري لتناول العشاء » ، ونفهمها حين تدور هنا وهناك مولولة « أين هم ؟ لعلهم ضلوا الطريق . هل لك أن تساعدني في البحث عنهم ؟ » . كما أننا نفهم ما يقصد إليه قط يرعد في الليل محنقا مهددا « يالكُم من سلالة نجسة ! لو جسرتم على الحياء إلى هنا لقطعت فراءكم لإرباكاً » . ومن السهل علينا أن ندرك بعضا من وسائل التعبير عند الكلب ، أو ندرك جانباً من حديث وحركات أى طائر أو حيوان آخر نستأنسه ونلاحظه ، وإن دقة ووضوح العبارات القليلة التى نفهمها من حديث البجاجة لتقوم دليلاً قاطعاً على أن بإمكانها توصيل المئات من أفكارها إلى بنات جنسها رغم أننا لا نفهم ما تعنيه فى كل مرة . أى إنها بالاختصار قادرة على التخاطب . وهذه الحجة يمكن تطبيقها أيضاً فى حالة غيرها من أفراد ذلك الجيش العرمرم من « المخلوقات التى لم يتم اكتشافها » التى لم يتسن لنا تفهمها بشكل كاف .

وليس مستغرباً أن تصل القحمة والغرور بالإنسان إلى أن يسم حيواناً بسمة العجى لا لشيء إلا أن قوة الملاحظة عند الإنسان عاجزة عن أن تستشف القدرة على التعبير الكامنة وراء تلك المعجمة الظاهرة ، والآل نعد إلى النملة .

الشاب : نعم عد إلى النملة . عد إلى تلك المخلوقة التى تريد أن تتخذها حجة دامتة تمحو كل ما بقى قائماً من حدود عقلية بين الإنسان والحيوان . الشيخ : وهذا هو ما تفعله النملة بكل تأكيد . فمثلاً ليس فى تاريخ سكان استراليا الأصليين ما يدل على أن أحدهم دار بخلافه يوماً أدنى ظل لفكرة

بناء بيت يسكنه ، بينما النملة « مهندس » تدعو تصميماته للمعجب ، فهي كائن ضئيل صغير ولكنها تبني بيتا قويا ثابتا يمكنه أن يقاوم الزمن وأن يقاوم التلف . يبلغ ارتفاعه ثمانى أقدام — فنسبة حجمه إلى حجمها تجعله مساويا لأضخم كاييتول أو كاتدرائية فى العالم ، إذا قورن حجم كل من هذين الأخيرين بحجم الإنسان . ولم يحدث يوما أن ظهر من بين أفراد شعب بدائى مهندس له من العبقرية والمعرفة ما يجعله يتسأى إلى مستوى النملة ؛ بل وما حدث أن قدم شعب متمدين للإنسانية أحداً من المهندسين أمكنه أن يضع تصميم بيت يبق بالأغراض التى يبنى من أجلها بقدر ما تبق بيوت النمل بحاجاته . فبيوت النمل تحوى قاعة للعرش ، وحجراً لتربية صغاره ، ومخازن للحبوب ، و « شققا » لسكنى الجنود ، وأخرى لسكنى العمال ... وهكذا . وكل هذه الحجرات والصالات والدهاليز المتعددة التى تصل بينها تم عن معرفة ودراية وخبرة كرسى لتربيتها وتوزيعها حتى تظل ملائمة للسكنى ، بل وقابلة للتعديل إن اقتضى الأمر .

الشاب : يمكن تفسير هذا كله بأنه مجرد غريزة .

الشيخ : لاشك أن مثل هذه الغريزة كانت ترفع من قدر الإنسان الفطرى لو أنه خلق مالمالكها . ولكن دعنا نذهب فى بحثنا إلى أبعد مما ذهبنا قبل أن نقرر شيئا . إن النمل جنوداً تنتظمهم فصائل وفرق وجيوش . بل ويقوم بينهم من أنفسهم قواد يتولون تسيير دفة القتال الشاب : يمكن تفسير هذا أيضا بأنه مجرد غريزة .

الشيخ : دعنا نذهب إلى أبعد من ذلك ، إن للنملة نظاما للحكم — وهو نظام دقيق يتم تنفيذه فى يسر ومهولة رغم أنه متشعب متداخل ،

الشاب : هى الغريزة من جديد .

الشيخ : وللتأمل جموع هائلة من العبيد تستغلها بقسوة وعسف فى أعمال السخرة .

الشاب : غريزة .

الشيخ : وللتأمل أبقارها ، وهى تحلب هذه الأبقار .

الشاب : أعمال غريزية بالطبع .

الشيخ : فى ولاية تكساس يوجد نوع من النمل يمكنه أن يمد مزرعة مربعة الشكل طول ضلعها اثنتا عشرة قدما تقريبا ، فيتولاها بالحرث والبذر ، ثم يتمهد النبات النامى بالخدمة والحراسة ، ويستبعد ما قد ينمو من أعشاب ضارة ، وحين ينضج المحصول يجمعه ويخزنه فى مكان أمين .

الشاب : هى الغريزة رغم كل ما ذكرت .

الشيخ : والنملة تميز بين الصديق وبين الغرب . وعلى سبيل المثال أذكر ما فعله « سيرجون لوبوك » . فقد أخذ جماعتين صغيرتين من النمل من خليتين مختلفتين وسقى أفرادها قدراً من الخمر حتى نملوا ، ثم وضعهم (وقد غيهم السكر عن وعيهم) بجوار إحدى الخليتين على مقربة من حفرة مملوءة بالماء ، خرجت بعض نملات من الخلية واختبرت هذه المحاولات التعسة ، وبعد شئ من المداولة حملت أصدقاءها إلى الداخل وقذفت بالأغراب فى الماء ، كرر سيرجون لوبوك التجربة عدداً من المرات فاستمر النمل الخارج من الخلية يعيد نفس التصرف السابق — فيحمل الأصدقاء إلى الداخل ويلقى بالأغراب فى الماء ، ولكن فى النهاية حين وجدت الجماعة أن جهودها فى سبيل إصلاح شذوذ بعض أفرادها لم تثمر عيل صبرها فتعاونت على الإلقاء بالأصدقاء والأغراب

جميعاً في الماء . . . والآن خبرني هل هي غريزة تلك التي أملت مثل هذا السلوك ، أم هي مدارسة ومدولة تبعها تقرير خطة حيال ظرف جديد كل الجدة ولم يسبق أن مر بتجربة الجماعة . لقد وصلوا من مداولتهم إلى قرار ، ومن القرار إلى حكم ، ومن الحكم إلى تنفيذ . هل هذه غريزة ؟ هل هي أفكار تمجرت بمرور الزمن وبالتكرار فأصبحت عادة آلية فقدت كل مالها من حيوية الأفكار ؟ أم هل هي فكرة جديدة خلقتها وأوحتها المناسبة الجديدة والظرف الجديد .

الشاب : لا أملك حيال مثالك إلا التسليم بما تقول . لم يكن عمل جماعة النمل نتيجة لإملاء عادة ، بل تبدو فيه كل مظاهر عملية التفكير — أقصد عملية وضع نقطة من هنا ونقطة من هناك ، هذه إلى جانب تلك ، ثم استخلاص صلة أوحكم أو نتيجة — نعم ، أعتقد أن المسألة كانت تفكيراً . الشيخ : سوف أعطيك مثالا آخر للتفكير .

وضع فرانكلين وعاء به سكر فوق منصدة في حجرته . وصل النمل إلى السكر وبدأ في أكله وإتلافه ، جرب فرانكلين عدداً من الاحتياطات ، ولكن النمل كان يغلبه . وأخيراً وصل إلى ابتكار حيلة اعتقد أنها تعجز النمل — ولعل ذلك كان بوضع أرجل المنصدة في أوان مملأها بالماء ، أو لعله أنشأ دائرة من القطران حول وعاء السكر ، لا أذكر ماذا فعل بالضبط — وعلى كل حال فقد أخذ يرب ما النمل فاعل . قام النمل بمحاولات عدة فأخفق في كل واحدة منها . بدت عليهم الحيرة والارتباك ، وأخيراً عقد النمل مجلساً للمشاورة ، وتباحث الجمع في المشكلة إلى أن وصل إلى إقرار خطة للعمل .

وفي هذه المرة وجد الفيلسوف العظيم نفسه مغلوبا ، فقد كوّن النمل
موكباً صر بأرض الغرفة نحو الحائط فتسلقه ثم تابع السير عبر السقف
حتى نقطة تقابل وعاء السكر تماماً ، ومن هذه النقطة أخذ النمل يتساقط
واحدة تلو أخرى إلى قلب الوعاء ؛ فهل كان هذا بحكم الغريزة ؟ . . .
بحكم أفكار تحجرت بمرور الزمن . وبالتكرار كمادات آلية فقدت كل
مالها من حيوية الأفكار ؟

الشاب : كلا . أنا لا أرى ذلك بل أعتقد أن تصرف النمل كان حيلة جديدة
لمواجهة مشكلة جديدة .

الشيخ : حسناً . أراك قد سلمت بوجود القدرة على الاستنتاج في هذين المثالين .
وسوف أذكر لك الآن شيئاً عن مقدرة عقلية تفوق فيها النملة أى مخلوق
بشرى — تفوقه بمراحل عدة . أثبت سيرجون لوبوك بتجارب كثيرة
أن النملة يمكنها بنظرة واحدة أن تعرف نملة غريبة عن خليتها ولو كانت
هذه الأخيرة من نفس الجنس ونفس الفصيلة ، بل ولو كانت متخفية —
فقد عمد إلى تلوين بعض من النمل أثناء تجاربه . كما أنه أثبت أن النملة تعرف
كل نملة أخرى في خليتها المكونة من خمسمائة ألف فرد (٥٠٠٠٠٠)
بل وأكثر من ذلك أثبت أنه لو غابت نملة عن خليتها لمدة سنة فليس ثمة
ما يمنع بقية زميلاتنا من التعرف عليها واستقبالها استقبالا يئم عن حب
وترحيب . فكيف أمكن لكل واحدة منها أن تذكر زميلاتنا بهذه
السهولة ؟ .

لم يكن اللون هو الأساس . فالنملة التي لوّنتها لوبوك بلون آخري لم تطرد
ولم تضطهد ، بل قوبلت كأحدى أفراد الخلية ، وكذلك قوبلت النملة التي
غمسها العالم في الكلوروفورم — فلم تكن الرائحة هي الأساس . فهل تم

التعرف إذن من الجانبين على أساس الحديث أو على أساس حركات القرون الشعرية ؟ كلا فالسكارى من بين أفراد الخلية عرفهم زملاؤهم في الحال رغم عجزهم عن القيام بأية حركة ، وميزوا بينهم وبين الأغراب من أفراد الخلايا الأخرى ، ثم إن النمل كان كله من نفس الفصيلة والجنس ، وعلى ذلك كان تمييز الأصدقاء من الأغراب قائما على أساس الشكل والتقاطيع لكل فرد على حدة — ولا ننسى أن ذلك كان بالنسبة لأفراد خلية مكونة من خمسمائة ألف ٥٠٠٠٠٠ !! فهل يوجد إنسان واحد يتمتع بمثل هذه الذائكة ؟

الشاب : لا بالطبع .

الشيخ : أظهرت النملة في تجارب فرانكلين وتجارب لوبوك مقدرة بديعة على ضم شتات أفراد الحقائق (التي صادفتها في مآزق جديدة لم يسبق لها الوقوع فيها) ثم استنباط نتائج صحيحة بمجرد وضع الجزئيات جنبا إلى جنب — وهذه بالضبط هي عملية التفكير عند الإنسان . وبمساعدة الذائكة يحتفظ الإنسان بمشاهداته واستنتاجاته فيتأملها ويضيف إليها ويساعد على تفاعلها وبذا يتقدم مرحلة فأخرى نحو نتائج بعيدة من غلاية الشاي إلى محرك البخارى المقعد الذى يسير باخرة محيطية ؛ من السكك الشخصى إلى استخدام العبيد ؛ من سكنى الأكواخ إلى سكنى القصور ؛ من الصيد الذى تمليه الحاجة إلى الزراعة والغذاء المحزون ؛ من حياة البداوة إلى الحكومات المستقرة ذات السلطات المركزية ؛ من جموع غير متميزة إلى جيوش نظامية مجهزة .

والنملة تتمتع بالقدرة على الملاحظة وتتمتع بملكة التفكير تدعمها ذاكرة جبارة تحفظ وتعي . لذلك يجد حياتها صورة مطابقة للتقدم

البشرى تتمثل فيها المظاهر الأساسية لمدينة الإنسان — أفتعترض بمد هذا كله قائلاً إن الأمر ليس إلا غريزة ؟

الشاب : لعل ذلك كان راجعاً إلى نقص في ملكة التفكير من جانبي .
الشيخ : حسناً . لا تذكر ذلك لأحد ، وإياك وارتاب نفسك الخطأ مرة أخرى .

الشاب : هأنحن قد قطعنا شوطاً بعيداً في هذا الموضوع ، ويبدولى كنتيجة لبحثنا أن رغبتك متجهة نحو إقناعي بالتسليم بأن ليست هناك حدود عقلية تفصل الإنسان عن غيره من الكائنات التي لم يتم اكتشافها .
الشيخ : هذا هو ما أنتظر منك التسليم به . فقل هذه الحدود لا وجود لها بالمرّة — وليست هناك طريقة للتخلص من الاعتراف بهذه الحقيقة . والإنسان يتمتع بآلة عقلية أبدع وأقدر مما يتمتع به غيره من الحيوانات ، ولكن أسس تكوين هذه الآلة واحدة عند الجميع ، كما أنها تعمل دائماً بنفس الطريقة وليس باستطاعة الإنسان ولا الحيوان أن يسيطرا على العمليات التي تؤديها آلتها العقلية — فعملها تلقائي آلى لا يخضع لرقابة أو توجيه يبدأ حين يمن له البدء ، ويمجرك إن أردته قسراً على غير رغبة منه .

الشاب : وعلى ذلك فالإنسان يتكافأ مع سائر الحيوان فيما يتعلق بالأداة العقلية ، وليس بين الطرفين ثمة فارق ذو بال . اللهم إلا من حيث الدرجة وليس من حيث النوع ؟

الشيخ : تكاد المسألة أن تكون مثلاً ذكرت — مقدرة عقلية هنا يقابلها المثل هناك ، نعم يوجد الكثير من نواحي النقص في الجانبين ، فنحن لا يمكننا أن نفهم الجزء الأكبر من لغتها ، بينما السكب والفيل مثلاً

يتعلمان قدرأ غير يسير من لغتنا . فالحيوانات إذت تفضلنا من هذه الناحية ، ولكنها من ناحية أخرى لا يمكنها أن تتعلم القراءة أو الكتابة أو غيرها من العمليات العليا للإنسان ، سواء منها العقلية أو الجسمية ، وهنا يحق لهذا الأخير أن يفخر على سائر الكائنات .

الشاب : كلام معقول ! والآن لنندع كلا بنعم بما أوتى من مقدرة وعلم . وإنما أريد أن أذكرك بحاجز ما زال قائماً ، حاجز عال مفرط في العلو . ليس للحيوانات « وعى أخلاق » بينما الإنسان يتمتع بهذا الوعى الذى يرفعه عشرات الدرجات فوقها .

الشيخ : وعلى أى شىء بنيت هذا الظن ؟

الشاب : على رسلك يا سيدى ، ولنوقف الجدل لحظة . لقد احتملت كل ما فات من السخافات والترهات ، وفى ذلك الكفاية ، ولكنى لست مستعداً لوضع الإنسان مع غيره من الحيوانات فى نفس المستوى الأخلاقى .

الشيخ : لم يكن فى نيتى أن أسمو بالإنسان إلى هذا الحد .

الشاب : أراك تشتت يا سيدى ! ولا أظن من الصواب أن تتخذ حديثنا موضوعاً للمزاح .

الشيخ : لست أمزح . كل ما فعلته هو أن ذكرت حقيقة واضحة بسيطة ؛ وإنى أسلم معك بأن مجرد إدراك الإنسان للفرق بين الخير والشر يثبت تفوقه العقلى على بقية الكائنات ؛ ولكن حين يذكرنا الواقع بأن الإنسان يمكنه أن يرتكب الشر فى ذلك لإثبات لانهبوط مداركه الأخلاقية عن مدارك أى كائن آخر يجهز عن عمل الشر . وأعتقد أن موقفى هذا لا غبار عليه .

الإرادة الحرة

الشاب : وما رأيك فيما يتعلق بالإرادة الحرة ؟
الشيخ : رأيي هو أنه لا وجود لشيء بهذا الاسم . هل كان ذلك الرجل
الذى أعطى المرأة المعجوز آخر شأن في جيبه ثم احتمل السير في العاصفة
نحو بيته يملك شيئاً من حرية الإرادة ؟
الشاب : كان له أن يختار ، فإما البر بها وإما إهمالها لتألم . أليس كذلك ؟
الشيخ : بلى . كان هناك مجال للاختيار بين الراحة الجسمية في جانب ،
والراحة الروحية في جانب آخر . كان نداء الجسم قويا بالطبع ولكن
الروح قامت بنداء مضاد . كان عليه أن يختار بين النداءين وقد فعل ،
والآن خبرني من الذى قرر أو ما الذى قرر ذلك الاختيار ؟
الشاب : أى شخص — فيما عداك — سوف يقول بأن الرجل هو الذى
قرره ، وأنه حين فعل ذلك استخدم إرادته الحرة .
الشيخ : نجد أنفسنا دائماً على ثقة من أن كل إنسان قد وهب الإرادة
الحرة وأن فى وسعه — بل من واجبه — أن يستخدمها حين يمرض له
الاختيار بين سلوك طيب وسلوك أقل طيبة ، ولكننا مع ذلك رأينا فى
قصة ذلك الرجل . أن ليست له إرادة حرة بالمرة . فزاجه ، وتدريبه ،
والمؤثرات اليومية التى شكته وجعلت منه ذلك الشخص الذى نعرفه
— كل هذه العوامل « أجبرته » على تخليص المرأة المعجوز ليضمن
الخلاص لنفسه — لينقذ نفسه من ألم روحى ، من تعاسة لا تحتمل ،
هو لم يقم بالاختيار ، بل قامت به من أجله قوى ليس فى طاقته أن
يوجهها . لم تخل دنيا الألفاظ يوماً من لفظة « الإرادة الحرة » وهى فيما

أرى تعبر عن فكرة ليس لها وجود فعلى . . . لا وجود لها فى دنيا الحقائق ، وأنا أفضل ألا أستعمل هذا التعبير — إرادة حرة — بل أستعمل تعبيراً آخر .

الشاب : وما هو ؟

الشيخ : « الاختيار الحر »

الشاب : وما الفرق بينهما ؟

الشيخ : أولهما يشير إلى سلطة لا حد لها تتيح لك أن تعمل ما شئت ، وثانيهما لا يشير إلى أكثر من مجرد عملية عقلية هى القدرة على المفاضلة بين أحد تصرفين ، فتقرر أيهما أقرب إلى الحق والعدل .
الشاب : أرجو منك زيادة الإيضاح .

الشيخ : العقل يمكنه أن ينقد ويختار ، يمكنه أن يبين بحرية أى التصرفين ينطوى على الحق والعدل — ولكن مهمته تقف عند هذا الحد . لا يمكنه أن يذهب إلى أبعد من ذلك . ليست لديه السلطة ليأمر باتباع ما هو خير وترك ما هو شر ، فهذه السلطة ملك لغيره .

الشاب : ملك لمن ؟ . . . للإنسان نفسه ؟

الشيخ : بل ملك للألة التى تقوم مقامه . ملك للاستعداد الفطرى وللشخصية التى تبني حول هذا الاستعداد بالتدريب والبيئة .

الشاب : وهل هذه السلطة تضمن دائماً اتباع الخير ؟

الشيخ : لا بل هى تعمل ما بدا لها — فالألة العقلية عند « جورج واشنطنجتون » مثلاً لا تتبع إلا الخير ، بينما عقل « بزارو » قد يعلم أى التصرفين خير وأيها شر ، ولكن السيد المسيطر على كيان « بزارو » من الداخل سوف يفضل ارتكاب الشر .

الشاب : أفهم من هذا إذن أن الأداة العقلية عند رجل شرير تقارن بهدوء
ونزاهة بين تصرفين فتقرر أيهما أقرب إلى الحق والعدل .
الشيخ : نعم ، بينما الأداة الأخلاقية عنده سوف تتبع هذا أو ذاك وفقاً
لتكوينها ، فلا تنقيد مطلقاً بما قد يحسه العقل حيال الموضوع — أقصد
إن كان للعقل إحساسات من هذا النوع ، وهو أمر أنكره . فما العقل
هنا إلا « ترمومتر » هو يسجل الحرارة والبرودة ولا يعنيه من أمر هذه
أو تلك كثير أو قليل .

الشاب : إذن فليس من حقنا الادعاء بأن الإنسان بمجرد معرفته أى
التصرفين صواب وخير فسوف يجد نفسه مسيراً نحو فعل الخير ؟
الشيخ : سوف يقرر مزاجه وتدريبه طريق العمل الذى عليه أن يتبعه
ولسوف يتبعه . هو لا يملك أن يمتنع إذ لا سيطرة له على أية مرحلة من
مراحل الاختيار أو التنفيذ ، ألم يكن من الصواب أن يخرج نبي الله داود
قاصداً قتل جوليات فيقتله ؟

الشاب : نعم .

الشيخ : فلعلك إذن كنت تقر نفس العمل وتعتبره حقاً وصواباً لو أنه
صدر عن أى إنسان آخر ؟

الشاب : طبعاً :

الشيخ : ولعله كان من الصواب أن يحاول نفس العمل إنسان ولد جباناً بطبعه ؟
الشاب : نعم .

الشيخ : وأنت تعلم أنه ما من جبان ورث الجبن ونشأ عليه سوف يسمح
لنفسه بمثل هذه المحاولة . أليس كذلك ؟

الشاب : بلى .

الشيخ : وكذلك تعلم أن تكوين ومزاج ذلك الجبان سوف يقومان حائلا . لا يمكن تخطيه في وجه كل محاولة من هذا النوع . أليس كذلك ؟
الشاب : بلى أعلم ذلك .

الشيخ : أظنه يرى بمنتهى الوضوح أن من الصواب أن يحاول ما فعله داود ؟
الشاب : نعم .

الشيخ : أليس عقله متمتما « ببحرية الاختيار » حين يقرر إذا ما كانت المحاولة التي يمتزمها صواباً أو خطأ ؟
الشاب : بلى .

الشيخ : إذن فلو تسبب جبنه الموروث في منعه عن القيام بهذه المحاولة ، فإذا يكون مصير إرادته الحرة ؟ بل أين يمكن أن نجد هذه الإرادة الحرة ؟ ولماذا ندعي أن له إرادة حرة في الوقت الذي ترينا الحقائق المجردة أنه لا يملك قوة بهذا الاسم ؟ ولماذا نحاول بالباطل فنقول « بما أنه رأى الحق كما رآه داود فهو لابد فاعل ما فعله داود ؟ » لماذا نفرض نفس القوانين على الماعز والأسد ؟

الشاب : أتعني بذلك أن لا وجود حقيقي لشيء اسمه الإرادة الحرة ؟
الشيخ : هذا هو ما أعتقد ، هناك إرادة من نوع ما ولكن لا تأثير لها البتة على « الإدراك العقلي » للصواب والخطأ ، كما أنها غير خاضعة لهذا الإدراك . فمثلا الاستعداد الفطري والتدريب عند نبي الله داود تصدر عنهما إرادة . هذه الإرادة لا تخرج عن كونها قوة جبرية ، فكان على داود أن يطيع قراراتها ؛ أي أنه لا يملك الاختيار ، وكذلك الاستعداد الفطري والتدريب عند الجبان تصدر عنهما إرادة من نوع آخر ؛ وهذه بدورها قوة جبرية أيضا ، هي تأمره أن يتحاشى الخطر فيطيع أمرها ،

فلا مجال عنده إذن للاختيار ، ولكن ما من شجاع أو جبان يملك شيئاً اسمه « الإرادة الحرة » — أى الإرادة التى قد تؤتى الصواب أو ترنكب الخطأ وفقاً لما يقرره العقل من أحكام .

مقياس القيم

أهو موحد أم مزدوج ؟

الشاب : وثمة نقطة أخرى تشغلنى ، لا أعلم أين بالضبط تقيم الحد الفاصل بين الأَطَاع المادية والأَطَاع الروحية .

الشيخ : أنا لا أقيم حدوداً بالرة .

الشاب : وكيف ذلك ؟

الشيخ : الأَطَاع المادية لا وجود لها البتة ، هى اسم على غير مسمى ، وإنما كل الأَطَاع روحية .

الشاب : كل التمنيات والرغبات والمطامح روحية وليست مادية ؟

الشيخ : نعم فإن الضمير ، ذلك السيد المسيطر على كياناتك الداخلى ، يتطلب منك استرضاءه هو فى كل عمل تعمله ؟ وهو فى نفس الوقت لا يطالبك (بل ولا يشغل نفسه) بأمر غير هذا .

الشاب : أفإن طمع فى مال الغير — أليست هذه رغبة مادية صريحة بل صارخة ؟

الشيخ : كلا فما المال إلا رمز — يعبر بشكل حسى عن رغبة روحية ، وكل شيء مما تدعونه المادة إن رغبت فيه فإنما تطمع فى رمز ، إذ أنت لا تريده لذاته بل لأنه سوف يرضى روحك مؤقتاً .

الشاب : أرجو أن توضح بمثال .

الشيخ : لنفرض أن الشيء الذى أردته هو قبعة جديدة ؛ ولنفرض أنك حصلت على ما أردت ، فأرضيت بذلك روحك . ولكن على فرض أن أصدقائك سخروا من القبعة فإنها تفقد قيمتها فى الحال ، وتغدو أنت خجلا منها ، فتستبعداها من أمامك إلى حيث لا رجعة .

الشاب : أظننى قد فهمت . استمر .

الشيخ : أليست هى نفس القبعة ؟ طبعاً لم يتغير فيها شيء بالرة . ومعنى ذلك أنك لم ترد القبعة فى حد ذاتها ، وإنما أردت ما ترمز إليه — أردت شيئاً يرضى روحك ؛ وحين فشلت القبعة فى ذلك الإرضاء ضاع كل ما لها من قيمة . إذن فليست هناك قيم مادية ، بل كل القيم روحية ، وأنت قد تطيل البحث عن مثال واحد للقيم أو المعايير المادية ، ولكن تأكد أن بحثك سوف يذهب أدراج الرياح لسبب بسيط وهو أن هذه المعايير لا وجود لها . وحيثما بدت لك قيمة شيء فسوف يبينك البحث والتحليل أنها قيمة روحية (رغم استتارها فى كثير من الأحيان) . . فإن استبعدتها فقد الشيء كل ما له من اعتبار فى نظرك — مثله فى ذلك مثل القبعة .

الشاب : أفى استطاعتك أن تدخل النقود فى نطاق ما ذكرت ؟

الشيخ : نعم . فهى ليست إلا رمزاً لقيمتها المادية معدومة ، أنت تظن أنك ترغب فى النقود لذاتها ولكن الأمر غير ذلك ، أنت تريدتها من أجل الرضى النفسى الذى سوف تجلبه ، فإن أوتيت المال ولم تؤت الرضى زالت عن المال قيمته فى نظرك .

ولإليك قصة مؤثرة لرجل حرمه الجشع راحته فظل يكبد كد العبيد حتى جمع ثروة أسعدته ، ثم عم وباء لم يعمل أكثر من أسبوع

حتى وجد نفسه وحيداً بعد أن فقد كل عزيز لديه . زالت عن المال قيمته ، وأدرك صاحبنا أن ثروته إنما أسعدته يوم أسعدت أهله — رضيت نفسه لرضاهم وهم ينعمون بكل ما استطاع المال أن يشتريه من أسباب الرفاهة والهناء .

وأعود فأذكر من جديد كل قيمة مادية للمال . فأنت إن استبعدت القيمة الروحية نزلت بالمال إلى مرتبة القمامة والفضلات ، ولقد حق نفس القول على كل الماديات بدون استثناء سواء أكانت كبيرة أم صغيرة ، عظيمة أم حقيرة ؛ فالتاج ، والصولجان ، والبنسات ، والمجوهرات الزائفة ، والشهرة المحلية في حيز القرية المحدود ، والشهرة العالمية لمن حقق شهرة عالية — كل هذه تستوى في أن ليست لها قيمة مادية ؛ فإن أرضت الروح فهي ثمينة قيمة ، وإن لم ترضها فهي همل وعدم .

مشكلة

الشاب : لقد أشكلت على الأمر بتعبيراتك المطاطة فأنت أحياناً تعتمد على تقسيم الإنسان إلى شخصيتين أو ثلاث لكل منها سلطانه وأحكامه ومسئوليته ؛ وحين تعرضه بهذه الطريقة تتعذر على الإحاطة به كوحدة . أما إن تحدثت أنا عن الإنسان فلا أعنى غير وحدة شاملة يسهل إدراكها وتأملها .

الشيخ : هذه فكرة لطيفة ومناسبة . . . لو أنها كانت صحيحة . لنفرض أنك تحدثت فذكرت في حديثك كلمة مثل كلمة « جسمي » — فعلى من تدل هذه الياء في نهاية كلمتك ؟
الشاب : تدل على أنا . . . هي قائمة مقام الـ « أنا » .

الشيخ : فالجسم إذن موضوع للملكية ، والذي يملكه هو « أنا » . والآن حدثني عن ماهية هذه الـ « أنا » .

الشاب : الـ « أنا » هي الوحدة الشاملة ؛ هي ملك عام غير مقسم ، وتلبس الذات ملابساً كلية .

الشيخ : لو أن الـ « أنا » أعجبت بقوس قزح ، فهل الذي يجب هو كل الـ « أنا » بما في ذلك الشعر واليدان والكعبان ؟

الشاب : بالطبع لا . بل هو عتلى الذي يجب .

الشيخ : وعلى ذلك فقد بدأت تقسم الـ « أنا » بنفسك ، وكل إنسان يفعل ذلك ، بل يجد نفسه مضطراً لأن يفعل ذلك . فما هي إذن هذه « الأنا »

على وجه التحديد ؟

الشاب : أظن من الواجب تقسيمها لهذين القسمين : الجسم والعقل .

الشيخ : أظن ذلك ؟ لو فرضنا أنك قلت هذه الجملة « أنا أعتقد أن الأرض كروية » فمن هو ذلك « الأنا » الذي يتحدث ؟

الشاب : العقل .

الشيخ : ولو قلت « أنا متألم لفقد والدي » فمن هو « الأنا » في هذه الحالة ؟

الشاب : العقل .

الشيخ : هل يقوم العقل بعملية عقلية حين يختبر ثم يقبل الدليل على أن الأرض كروية ؟

الشاب : نعم .

الشيخ : وهل يقوم بعملية عقلية حين يتألم لفقد والدك ؟

الشاب : لا . ليس في هذا استخدام بالمعنى الصحيح لخلايا المخ ، فالعقل لا يقوم بمجهود ، بل المسألة مجرد « شعور » .

الشيخ : إذن فصدر هذه العملية ليس في عقلك بل في مجالك الأخلاق .
الشاب : أسلم منك بذلك .

الشيخ : هل عقلك جزء من وجودك المادى ؟
الشاب : لا . بل مستقل عنه ، فطبيعة العقل روحية .
الشيخ : وبما أن العقل روحى فلا أظنه يتأثر بالمؤثرات المادية ؟
الشاب : كلا .

الشيخ : هل يظل العقل مفيقاً حين يشمل الجسد ؟
الشاب : كلا .

الشيخ : وإذن فهناك أثر للمؤثر الجسمى المادى .
الشاب : يبدو لى ذلك .

الشيخ : قد تصاب إنسان بكسر فى الجمجمة يتسبب عنه خلل فى العقل ،
فكيف يحدث ذلك لو أن العقل كان روحياً ومستقلاً عن المؤثرات الجسمية ؟
الشاب : حسناً . . . لا . . . لا أدرى .

الشيخ : حين تصاب بألم فى قدمك فكيف تعرف ذلك ؟
الشاب : أشعر به .

الشيخ : ولكنك لا تشعر به حين تنقل الأعصاب رسالة الألم إلى المخ .
ومع ذلك أليس المخ مركز العقل ؟
الشاب : أظن ذلك .

الشيخ : ولكنه ليس روحياً إلى الحد الذى يكفل له معرفة ما يحدث خارج
نطاقه المباشر بدون مساعدة رسول من الجسم نفسه . ومن هنا ترى أن
مشكلة الـ « أنا » ليست بسيطة بالمرّة . فأنت تقول « أنا أعجب بقوس
قزح » أو « أنا أعتقد أن الأرض كروية » وفى كل من هاتين الحالتين

نجد أن الـ «أنا» لا تتحدث كوحدة شاملة ، وإنما يتحدثنا الجزء العقلي منها . ثم إذا بك تقول «أنا متألم» . وفي هذه الحالة أيضاً لا تتحدث الـ «أنا» كوحدة شاملة وإنما يتحدثنا الجزء الأخلاقي منها .

تدعى أن العقل روى محض ، ثم إذا بك تقول «أنا متألم» وإن بحثت عن دلالة الـ «أنا» في هذه الحالة وجدتها خليطاً من العقل والروح ، وكلنا حين نشير إلى الذات إشارة مبهمه بهذه الطريقة — وما لنا من طريقة غيرها ، نحن نتخيل وجود سيد أو ملك يتحكم فيما ندعوه أنت باسم «الوحدة الشاملة» ونعبر عنه بكلمة «أنا» . ولكن حين نحاول تعريفاً له نجدنا عاجزين عن فعل ذلك .

في إمكان العقل والإحساسات أن يعمل كل منهما مستقلاً عن الآخر تمام الاستقلال — نشهد ذلك فنقلب النظر بحثاً عن «حاكم» يفرض سيادته على كل منهما ، حاكم يمثل فكرة الـ «أنا» هذه تمثيلاً محدداً لا جدال فيه ويمكننا من معرفته ما ذا نقصد ، وعمن نتحدث وعن أى شيء نتحدث . كلما استعملنا ضمير التكلم المفرد .

ولكننا في النهاية نياأس من البحث ونجد أنفسنا مضطرين للاعتراف بمجزنا عن اكتشاف مثل هذا الحاكم ، وأنا أرى أن الإنسان آلة معقدة يقوم كل قسم منها بعملياته الخاصة : فالقسمان الأخلاقي والعقلي يعملان بشكل «أوتوماتيكي» وفقاً لدفعات يملها سيد داخلي لا تزيد عناصر تكوينه عن الاستعداد الفطري مضافاً إليه تجمع آلاف النتائج المختلفة عن المؤثرات الخارجية والتدريب ؛ آلة وظيفتها الوحيدة هي ضمان الرضا لذلك السيد الداخلي سواء أكانت نزعات طيبة أم شريرة ، آلة إرادتها مطلقة تتطلب الطاعة ، ولا تلقى غير الطاعة .

الشاب : ربما كانت الـ « أنا » هى النفس .

الشيخ : ربما . ولكن ما هى النفس ؟

الشاب : لا أدرى .

الشيخ : ولن تجد أحداً يدري .

الزعة ذات السيادة

الشاب : ما هو « السيد » ؟ أو (إن استخدمنا التعبير الدارج) ما هو

الضمير ؟ أسألك الإيضاح .

الشيخ : هو ذلك الحاكم المطلق (والمبهم فى نفس الوقت) الذى أودع

داخل الإنسان والذى يجبره على إرضاء رغباته ، يمكن أن تسميه باسم

« الزعة ذات السيادة » ، التعطش لرضا النفس .

الشاب : وأين مستقر تلك الزعة ؟

الشيخ : فى الكيان الأخلاقى للإنسان .

الشاب : وهل تتفق أوامرها دائماً مع مصلحة الإنسان ؟

الشيخ : هى لا تميز هذه المصلحة أدنى اهتمام ، بل هى لا تعنى بغير إرضاء

رغباتها الخاصة . يمكن تدريبها على تفضيل الأشياء التى تعود على الإنسان

بالخير ، فإن فضلها فـا ذلك إلا لأن هذه الأشياء ترضيها أكثر مما

يرضيها أى شئ آخر .

الشاب : أتعنى أنها حتى لو درّبت على اعتناق مثل عليا طيبة فهى ما زالت

تبحث عن رضاها هى أولاً ، بدلا من أن تبحث عن خير الإنسان

الذى تستقر بين جنبيه .

الشيخ : سواء درّبت أو لم تدرب فهي لا تعنى بمصلحة الإنسان أو خيره . . .
ولا تشغل نفسها مطلقاً بمثل هذه المسائل .
الشاب : يبدو لى أنها قوة « لأخلاقية » تستقر فى الكيان الأخلاقى
للإنسان .

الشيخ : نعم ، هذا هو مقررهما . ولكنها ليست قوة شريرة كما تظن بل كل
ما فى الأمر أنها عديمة اللون — دعنا نسميها غريزة — غريزة عمياء ،
لا وعى لها ولا تفكير ، لا تميز بين المقاييس الأخلاقية الطيبة والمقاييس
السيئة ولا يعنىها فى شىء ما يصادفه الإنسان من نتائج ، طالما هى قد
أمنت طريقها نحو الرضا والاكتفاء ، ولسوف تعمل دائماً على تأمين
هذا الطريق .

الشاب : هى تبحث عن المال ، ولعلها تعتقد أن فى ذلك خيراً للإنسان ؟
الشيخ : ولكنها ليست دأمة البحث عن المال ، ولا عن القوة ، ولا عن
المركز ، ولا عن أى كسب مادى آخر . وهى فى كل الحالات إنما
تبحث عن الرضى الروحى بصرف النظر عن الوسيلة إليه ، رغباتها تتقرر
بفعل المزاج أو الاستعداد الفطرى للفرد . المزاج ، الضمير ، الاستجابة ،
النهم الروحى — هذه أسماء ترمز كلها إلى نفس الشىء . أما حدث أن
سمعت عن شخص لا يعنيه المال فى شىء مطلقاً ؟

الشاب : بلى . سمعت أن أحد العلماء رفض ترك حجراته المتواضعة وكتبه
حين عرض عليه أن يشغل عملاً يترتب عليه كبير فى أحد دور الأعمال .

الشيخ : كان عليه أن يرضى النزعة ذات السيادة — أو بعبارة أخرى مزاجه
ونهم روحه . وهذه فضلت الكتب على المال . وهل تعرف حالات أخرى ؟
الشاب : نعم ، حالة الناسك .

الشيخ : هذا مثال طيب . فالتناسك يحتمل الوحدة ، والجوع ، والبرد ، وعشرات المخاطر ليرضى ذلك الحاكم المطلق ، ليرضى تلك النزعة ذات السيادة التي يتحكم في كيانه والتي تفضل الصلاة والنسك ، تفضل التأمل والزهد على كل ما يمكن أن يأتي به المال من مظاهر العز أو النعمة ، أليس أمثلة غير هذى ؟

الشاب : نعم . الفنان والشاعر والعالم .

الشيخ : إن « الحاكم المطلق » عند كل من هؤلاء يفضل ما تبيمه هذه المهن من أسباب السعادة بصرف النظر عن مقدار ما يتقاضونه من أجر على أعمالهم . ولعله الآن قد تحقق لديك أن « النزعة ذات السيادة » تولى اهتمامها لأشياء كثيرة بجانب ما يدعونه بالكسب المادى والرخاء المادى أو العملة . . . وما إلى ذلك من تماير ؟

الشاب : أعتقد أن من واجبي الاعتراف بذلك .

الشيخ : أحسنت : لعل هناك من ذوى الأمزجة التي ترفض التقيد بأعباء ومشاكل ومظاهر المناصب الكبرى بقدر ما هنالك ممن يسيل لعابهم لها . فالنوع الأول من الأمزجة يبحث عن إرضاء الروح ولا يبحث عن شيء سواه ؛ وهذا هو بالضبط ما يبحث عنه النوع الآخر . وكلاهما لا يذهب في بحثه إلى أبعد من هذه الرغبة في إرضاء الروح . فإن اعتبرت أحدهما دينياً ، فكلهما دنيء ، بل هما يتساويان في دنائتهما نظراً لأن الغاية المرجوة هي هي بالضبط في كلتا الحالتين . وفي كلتا الحالتين يتم الاختيار تبعاً لما يقرره المزاج - والمزاج كما تعلم قوة فطرية موروثة لا مكتسبة .

خاتمة

الشيخ : هل سافرت لقضاء عطلة في الأيام الأخيرة ؟
الشاب : نعم . قمت برحلة جبالية استغرقت زهاء الأسبوع . هل أنت على استعداد للحديث ؟

الشيخ : على تمام الاستعداد . بأي شيء نبدأ ؟
الشاب : بينما أنا مستلق في فراشي أستمتع قضيت يومين وليلتين أستعيد كل ما مر بيننا من أحاديث وأقلب الفكر فيها ناقدًا ، فخرجت من تأملاتي بهذه النتيجة أن ... أنك ... هل تنوى أن تنشر هذه الخواطر عن الإنسان في يوم من الأيام ؟

الشيخ : لقد ظل ضميري متردداً خلال السنوات العشرين الماضية فيما إذا كان يصدر إلى الأمر بتسجيل هذه الأفكار ونشرها — والآن لا أدري هل أنت بحاجة لأن أخبرك بالسبب في عدم صدور أمره حتى الآن ، أم هل أنت قادر على تفسير مثل هذه المسألة البسيطة بدون مساعدتي ؟

الشاب : نعم . هي البساطة بعينها . لقد حركت مؤثرات خارجية ذلك « السيد الداخلي » نحو إصدار الأمر ، ولكن مؤثرات خارجية أقوى عطلت ذلك القرار . وبدون المؤثرات الخارجية ما كان يتسنى لأي من هاتين الدفعتين أن تولد بالمرّة نظراً لأن عقل الإنسان يمحّض عن ابتكار فكرة من تلقاء نفسه .

الشيخ : أصبت ! استمر .
الشاب : ومسألة النشر أو عدمه ما زالت بين يدي سيدك (أي ضميرك)

فإذا حدث يوماً أن جاء مؤثر خارجي ودفعه نحو اتخاذ قرار بالنشر
فلسوف يصدر أمره ولسوف يطاع فيما أمر .

الشيخ : هذا صحيح . وماذا بعد ؟

الشاب : بعد شيء من التفكير وصلت إلى الاعتقاد بأن أفكارك إن نشرت
فسوف تكون مبعثاً للخطر . أرجو ألا تؤاخذني .

الشيخ : أؤاخذك ؟ أنت لم تقل شيئاً تؤاخذ عليه . فما أنت إلا أداة —
أنت بوق لا أكرر ، والأبواق غير مسؤولة عما يقال خلالها . فالوثرات
الخارجية (التي ظلت تتجمع خلال حياتك في شكل تعاليم وتدرّيات
وآراء ، وأحقاد وغيرها من الممتلكات ذوات الأهمية الثانوية) أقنعت
« السيد الداخلي » عندك أن نشر هذه المعتقدات سوف تتسبب عنه
أضرار ، وهذه فكرة طبيعية جداً ، بل فكرة منتظرة ، بل أكثر
من هذا وذاك لا سبيل إلى تلافياها .

استمر — وأرجو أن تظل على ولائك لمبادئك العقلية كيما تسترسل
في حديثك سهلاً طيعاً . بل وأرجو أن تتحدث عن نفسك وتخبرني
بما يراه « سيدك الداخلي » في هذا الصدد .

الشاب : حسناً أول عيوبها أنها عقيدة هدامة ، ليست قادرة على الإيحاء ،
أو بعث الحماسة ، أو التسامى بالإنسان ، هي تحرم الإنسان من مجده
وكبريائه وبطولاته ، تنكر عليه حقه في التقدير الشخصي ، حقه في
المدح . هي لم تكثف بأن تنزل بمقله إلى مستوى الآلة بل أنكرت
أيضاً كل سيطرة له « على هذه الآلة » هي تجعل منه مجرد « طاحونة بن »
ثم لا تسمح له بعمل البطاحونة ولا بإدارة اليد ، إذ تنحصر وظيفته
الوحيدة في عملية الطحن نفسها — فيخرج مسحوقاً لعله ناعم ولعله

خشن ، فهذا يتوقف على الطريقة الذى صنع بها ، وأما بقية العمليات فتقوم بها المؤثرات الخارجية .

الشيخ : أحسنت عرض نقدك . خبرنى ما الصفات التى تجعل إنساناً يعجب بإنسان آخر ؟

الشاب : الذكاء والشجاعة ، قوة البنية ، جمال الوجه ، الإحسان ، الكرم ، التسامح ، الرحمة ، البطولة . . . وغيرها وغيرها .

الشيخ : سوف أكتفى بهذا القدر . كل ما ذكرت « عناصر أولية » بينما الفضيلة والجسّد ، والتدين ، والصدق ، والولاء ، والمثل العليا — هذه وكل ما يتصل بها من الصفات التى امتلأت بها المعاجم ليست إلا مشتقات أخذت عن تلك العناصر الأولية إما بطريق الخلط أو الربط أو التركيز أو التخفيف . ففى أشبه ما تكون باللون الأخضر الذى ينتج من مزج اللونين الأزرق والأصفر ، أو لعلها شبه الدرجات التى يمكننا إعدادها من اللون الأحمر مثلاً حين نبدل من مقدار تركيز ذلك اللون .

فهناك سبعة ألوان أولية جمعت كلها فى « الطيف الشمسى » وبوسعنا أن نصنع من هذه الألوان السبعة قرابة خمسين درجة تحمل كل منها اسماً خاصاً . وأنت قد ذكرت العناصر الأولية « للطيف الإنسانى » ، كما ذكرت مزيجاً واحداً — أعنى البطولة — ففى تتكون من الشجاعة والتسامح . فى إمكانك أن تخبرنى أى عنصر من هذه العناصر الأولية يمكن لصاحبه أن يصنعه بنفسه ؟ أهو الذكاء ؟

الشاب : لا .

الشيخ : لماذا ؟

الشاب : لأنه يولد مالكا لذاته .

الشيخ : إذن فلعلة قوة البنية ؟ أو جمال الوجه ؟

الشاب : كلا . فهذه تورث ولا تصنع .
الشيخ : إذن فهات غيرها من العناصر الأخلاقية الأولية — الإحسان ،
الكرم ، التسامح ، الرحمة ، بذور طيبة إن تولتها المؤثرات الخارجية
بالرعاية خرجت منها تلك المركبات العديدة من الفضائل التي امتلأت
بأسمائها المعاجم ، فهل يصنع الإنسان بذرة من هذه البذور ؟ أم أنها
تولد معه ؟

الشاب : تولد معه .

الشيخ : من الذى يصنعها إذن ؟
الشاب : الله .

الشيخ : لمن يعود الفضل فيها ؟
الشاب : لله وحده .

الشيخ : ولمن يحق التمجيد والمدح اللذان ذكرتهما فى حديثك ؟
الشاب : لله وحده .

الشيخ : إذن فأنت الذى تحقر شأن الإنسان . جعلته يطالب بالمجد والمدح
والثناء كنتيجة حتمية لما يملكه من صفات طيبة — زخرف كل ما فيها
مستعار . هو لم يكسب شيئاً منه بنفسه ، لم يخلق ذرة منه بمجهوده ،
أردته منافقاً مغروراً فهل فعلت أنا به أسوأ مما فعلت أنت ؟
الشاب : لقد جعلت منه آلة .

الشيخ : ومن الذى خلق تلك الآلة بكل ما لها من دقة وجمال . . .
أهو الإنسان ؟

الشاب : لا بل خلقها الله .

الشيخ : ومن خلق ذلك القانون الذى بمقتضاه توقع الآلة الإنسانية على
« البيانو » لحفا له روعته وله صعوبته ، فلا تخطئ . رغم أن العازف قد

يكون مشغولاً بالتفكير في شيء آخر أو بالحديث مع صديق ؟
الشاب : خلقه الله .

الشيخ : ومن خلق الدم ؟ من خلق تلك المضخة البدنية التي تعمل ليل
نهار من تلقاء نفسها فتبعث تيار الحياة متجدداً بدون ما حاجة إلى
مساعدة أو نصيحة من جانب الإنسان ؟ من خلق العقل الذي يسير
ولا يسير ، فيتناول من الموضوعات ما يحلوه غير عابء بإرادة الإنسان
أو رغبته . . . فيكدر طوال الليل إن شاء متجاهلاً صيحات صاحبه
أن ارحمني ودعني أنا ؟ خلق الله هذه الأشياء كلها ؟
وإذن فلست أنا الذي جعل من الإنسان آلة بل هكذا خلق .
كل ما فعلته هو أن وجهت انتباهك نحو الحقيقة . فهل أخطأت بهذا
التوجيه ؟ هل هي جريمة ؟

الشاب : أرى من الخطأ عرض فكرة تؤدي لنتائج غير محمودة .
الشيخ : استمر .

الشاب : يجب أن نعترف بالواقع ، فكم من مرة قيل للإنسان بأنه أسمى
آية من آيات الخلق والإبداع — هو يؤمن بهذه الفكرة . . ولم يتطرق
إليه أدنى شك في صحتها في أي عصر من العصور ، سواء أكان يتخبط
في عرابه ووحشيته أم يختال في ثوب المدنية الأرجواني الفاخر . خفف
الاعتقاد من أعباء قلبه وأسعد أيام عيشه فكان من أثر اعتداده وإعجابه
بنفسه ، كان من أثر ارتياحه للإنتاج الذي حسبه رهيماً بإرادته ،
واستمتاعه بالدح والإطراء اللذين عادا عليه من هذا الإنتاج — كان
من أثر هذا كله أن راح يتسامى في نظر نفسه إلى أرفع مستويات العزة
والحماسة والطموح . وبالاختصار عادي يرى أن الحياة جديرة بأن يحياها .

ولكن نظريتك تلتى هذا كله ؛ فهي تنزل بالإنسان إلى مستوى الآلة وتحيله نسياً منسياً . تنكش في نفسه بواعث الاعتداد فتغدو مجرد زهو أجوف فهو إن جاهد كيفاً شاء له الجهاد فلن يصبح أحسن حالاً من أشد جيرانه ذلة أو غباء ، لن يطرب بعد اليوم ، لن يرى في الحياة ما يفره بحب الحياة .

الشيخ : أعتقد ذلك حقاً ؟

الشاب : بكل تأكيد .

الشيخ : هل اتفق لك في وقت من الأوقات أن رأيتني حزينا أو مهموماً ؟
الشاب : كلا .

الشيخ : ولكني مؤمن بهذه الأفكار ، وما شقيت بهذا الإيمان . فلماذا ؟
الشاب : بالطبع سوف تفسر المسألة على أنها « مزاج » أو « استعداد فطري »
لم يموزك التفسير حين بنيت نظريتك .

الشيخ : هذا صحيح فالزواج يولد مع الإنسان ، فإن ورث مزاجاً تفساً يشقيه لم يقدر شيء على إسماعه ؛ وإن ورث مزاجاً مرحاً يرضيه لم يقدر شيء على إيلاؤه .

الشاب : وكيف ذلك ؟ ألا تؤله عقائد هدامة تقتل في نفسه الإيمان بالحياة ؟

الشيخ : عقائد ؟ مجرد عقائد ؟ مجرد مبادئ ؟ . . . لا حول لها ولا قوة يا سيدى ! فهي إنما تجاهد عبثاً أمام تيار « المزاج الفطري » .

الشاب : لا يمكننى أن أصدق هذا ولن أصدق .

الشيخ : أراك تسرعت في الحكم ولم تكلف نفسك عناء دراسة الحقائق ،
والآن أريدك أن تخبرنى من أكثر أصدقائك تفاؤلاً « برجس »
أليس كذلك ؟

الشاب : بلى .

الشيخ : ومن أكثرهم تشاؤماً ؟ « هنرى آدمز » ؟

الشاب : بدون شك .

الشيخ : أعرفهما جيداً . . . كلاهما شاذ ، لقد تغالت الطبيعة فى إعداد كل منهما فتناقض مزاجهما تناقض القطبين . تاريخ حياتهما متشابه إلى حد بعيد . ولكن انظر كيف كانت الماقبة عند هذا وذاك . يتقاربان من حيث السن — فكلاهما حوالى الخمسين . عاش برجس طوال حياته مرحاً متفائلاً سعيداً ، وعاش آدمز بئرياً متشاعماً تمساً . حاولا فى شبابهما أن يجربا حظيهما فى عالم الصحافة فلم يفلحا . لم يُعير برجس المسألة أدنى اهتمام بينما بلغ اليأس بآدمز أن فقد القدرة على الابتسام ؛ ظل يشكو ويتحسّر على ما فات ؛ فرض على نفسه عذاب الندم الذى لا يجدى ؛ نسب إلى نفسه الإهمال والتقصير — « لو أننى كنت فعلت كذا ولم أفعل كذا لكنت من المفلحين » .

ثم جرباً حظيهما فى عالم القانون فأخفقا من جديد . ظل برجس سعيداً لأنه لا يملك إلا أن يكون سعيداً . وزاد آدمز تماساً لأنه لا يملك إلا أن يكون تمساً ، ومنذ ذلك الوقت ظل هذان الرجلان يجربان حظيهما فى مختلف المجالات فتنتهى محاولتهما دائماً بالفشل ، كان برجس يخرج من كل محاولة سعيداً بينما يحدث العكس عند آدمز . فكأنه قد تأكد لدينا الآن أن المزاج القطرى لكل من هذين الرجلين ظل ثابتاً لا يتغير خلال جميع ما تعرضت له مصالحيهما المادية من ضربات . ولننظر الآن كيف كانت الحالة بالنسبة لمصالحهما غير المادية .

كان كل منهما ديموقراطياً متحمساً ؛ ثم انقلبا جمهوريين متحمسين

كذلك ؛ وبنفس الحماسة قررا فيما بعد الابتعاد عن الحزبية ، كان برجس دائماً يشعر بالسعادة كلما قرر اعتناق مذهب سياسى جديد أو هجر مذهب قديم ، بينما آدمز لا يحس ولا يرى غير التماسه والشقاء . أما عن المذهب الدينى فقد تبع كل منهما مذهب البرسبتيريان ، ثم مذهب اليونيفرسالست ، ثم الثوديست ، ثم الكاثوليك ، ثم البرسبتيريان من جديد ، ثم الثوديست من جديد . كان برجس يشعر بمنتهى الارتياح نحو هذه الهجرات الروحية ، وأما آدمز فلم يذق للراحة طعماً . وكلاهما الآن يجريان « العلم المسيحى » ويمكننا التنبؤ بالنتيجة المنتظرة ، بل الحتمية . وأؤكد لك أنه ما من مذهب سياسى أو عقيدة دينية تقدر على إشقاء برجس أو إسماعاد صاحبه بل المسألة رهينة بمزاج كل منهما ، فالمعائد تكسب ، بينما الأمزجة تورث ، والمعائد عرضة للتبديل ، بينما المزاج لا يمكن تغييره أو تحويله .

الشاب : ولكنك اتخذت موضوعاً لثالثك حالتين من المزاج المتطرف .
الشيخ : نعم . وإن أنواع الأمزجة الأخرى ليست إلا حالات أقرب إلى الاعتدال تقع بين هذين النقيضين ، ولكن القانون هو هو لا يتغير ؛ فإن كان عنصر السعادة أو عنصر الشقاء فى أحد الأمزجة لا يزيد عن الثلثين مثلاً فليس بوسع مذهب سياسى أو عقيدة دينية أن تغير هذه النسب . والغالبية العظمى من الأمزجة يتعادل فيها العنصران تقريباً ، فيزول عنها كل أثر للتحويل المتطرف ، وهذا يمكن كل أمة من أن توائم بين نفسها وبين ظروفها السياسية والدينية فتحبها وترضى بها وتفضلها على ما عداها .

الأمم لا تفكر وإنما تحس ؛ تأتينا إحساساتها عن طريق أمزجة

بنيها لا عن طريق عقولهم ، وفي الإمكان إقناع أية أمة (بالظروف الواقعية وليس بالحجج اللفظية) أن تقبل أى نوع من أنواع الحكومات أو العبادات يمكن أن تخطر على فكر بشر . ففي الوقت المناسب سوف تفسّر الأمة من طبيعة نفسها حتى تلائم التغيرات المرغوب فيها ؛ ثم لا تلبث أن تفضلها على ما عداها ؛ ثم تناضل في النهاية طوعاً من أجلها . وإن أردت مثالا فأمامك التاريخ كله . أمامك الإغريق والرومان ، والفرس ، والمصريون ، والروس ، والألمان ، والفرنسيون ، والانجليز ، والأسبان ، والأمريكيون ، واليابانيون ، والصينيون ، والهندوس ، والأتراك الخ ، أمامك قرابة الألف من الأدليل منها ما هو جامع عنيف ، ومنها ما هو هادئ سمح . أمامك كل نوع من الحكومات ما يمكن أن يخطر على بال . كل أمة منها تعلم علم « اليقين » أن لديها دين الحق الذي لا دين بعده ، أو مذهب الحكم الذي لا مذهب غيره ؛ تحتقر معتقدات وأنظمة كل من غداها غير عالة أنها ليست إلا قطيعاً من الحجر . كل أمة تفخر بتفوق موهوم وتؤمن إيماناً أعمى بأنها هي التي اختصها الله برعايته ؛ يدعو الجميع بثقة لا يأتينا الشك أن يتولاهم ويوفقهم في زمن الحرب ، ثم يدهشهم أن يستجيب الله للعدو دونهم ، ولكنهم قادرون بحكم العادة على أن يلتمسوا عذرا ليمودوا للشكر والدعاء ، وبالاختصار فإن الجنس البشري بأجمعه راض وراض دائماً ، بل وليس ثمة ما يرحضه عن رضائه أو يرحض ذلك الرضاء نفسه ؛ هو جنس يملؤه الإحساس بالسعادة والامتنان والزهو ، بصرف النظر عن نص الدين الذي يتبعه أو نوع الحكم الذي يخضع له .

هل تحدثت بغير الحق ؟ كلا ، وأنت تعلم ذلك . هل يسعد البشر
بما هم فيه ؟ نعم ، وأنت تعلم ذلك . فلو أجلت الفكر لحظة فيما هم
يحتفلون من مكاره مع احتفاظهم في نفس الوقت بسعادتهم ، لرأيت
عظم ما تنسبه لى من الفضل حين تظن أن باستطاعتى أنا أن أضع أمامهم
حشداً من الأفكار — التى يعوزها الدفء ويعوزها الجمال — فأقضى
على ما هم فيه من مراح واستمتاع . ما من شيء أمكنه فعل ذلك ، لقد
مُجِرِّبت جميع الوسائل فباءت بالفشل وعلى ذلك أرجو ألا تشغل
بالك بالأمس .

سلسلة الفكر الحديث

تصدرها

سجدة التاييف والترجمة والنشر

٩ شارع الكردي . عابدين

تليفون ٤٢٩٩٢ - ٥٦٧٦٦

الكتب التي ظهرت

- (١) دعائم السلام
- (٢) فنون الأدب
- (٣) الوسائل والغايات
- (٤) في التربية
- (٥) قناة السويس
- (٦) مقالات مختارة من الأدب الإنجليزي
- (٧) عصر الخرافة الذي نعيش فيه - الكتاب الأول
- (٨) » » » » » - الكتاب الثاني
- (٩) كيف يعمل العقل - الكتاب الأول
- (١٠) كيف يعمل العقل في المجتمع - الكتاب الثاني
- (١١) ما الإنسان

الكتاب القادم

قصة الحضارة

Bibliothèque Alexandrina



0495414

مكتبة الإسكندرية